كرم صابر

كرم صابر

طائر النسيان

طائر النسيان

المحروسة

المحروسة

طائر النسيان

رواية

كرم صابر

طائر النسيان: رواية

تأليف: كرم صابر

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٢١٢

مركز المحروسة

للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش٩ – المقطم – القاهرة

ت،ف: ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧

e.mal: mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

لروح جدَّتى القويةِ الشامخة

زُّنوبة هِنيدى

"إحساس"

(١)

خانتنى الذاكرة ، وأبحرت لأعماقى متجاوزًا الوجود ، وجدت نفسى وحيدًا غائبًا ، لا ماضى ولا مستقبل .

أعيش يومياتى دون أحاسيس ، نفس الوجوه التى لا أعرفها ، الضحكات المكررة التى تُظْهِرُ أسنانهم واضحة ، ملابسهم وعرقهم وحر الصيف ، ودخان المقاهى ، ونبرة صوتهم الحزينة الآملة ، العيون البائسة التى فقدت شيئًا لا تعرفه ، تغيب فجأة بأعماقى البعيدة وتتلاشى .

كل الذين لا أعرفهم ، يسيرون أمامى منشغلين بالأحداث التى تمزق يومياتهم ، مدهوشين بالمرور من نفس الطرقات للمنازل والمساجد والمقاهى وأماكن العمل ، غير عابئين بالمصير .

مرة واحدة قررت التوقف ، مكثت بالمنزل ، ورفضت النزول للشارع ، سأبدأ من جديد بعد أن فاض الكيل ، ويئست من رؤيتهم ، وأحداثهم المكررة المعادة دون انفعال .

حياتهم تضيع فى الأزقة والبيوت والمقاهى التى تضج بالعاطلين ، الجميع يتعاطى عن قصد مخدر البانجو والحشيش ، ليظل حيًا ، ومع ذلك قررت ، فى لحظة غير مدروسة ، وبشكل مباغت التوقف ، وانتظار الفرج .

عبثًا ضاعت حياتى البسيطة بين أسرتى الصغيرة ، وعملى المتواضع ، وأصدقائى وجيرانى القليلين ، وأهلى المنتشرين بالحوارى والأزقة ، وفى لحظة مباغتة قررت بإرادتى الحرة الواعية الامتناع عن معرفتهم .

فى الأيام الأخيرة شاهدتهم مرات كثيرة وحاولت أن أفهم شيئًا ، لكنهم بجهل متعمد ضحكوا وتركونى واستكملوا يومياتهم دون تساؤل عن جدوى مصيرى.

قالوا جميعًا بنفس النبرة: " ده مُلْك ومنظمه صاحبه ، عش حياتك ، ومتوجعش دماغنا ".

قررت التوقف والمواجهة ، لن يتمكن أحد من إعادتى مرة أخرى لنفس الطريق المرسوم بحكمة منذ ميلادي وحتى وفاتي .

نهضت من على سرير متسخ ، فوجئت بنفسى ملقًى عليه ، فى يوم لم أعرف اسمه ، وسألت أول امرأة قابلتنى فى الشقة الضيقة ، بصوت عالٍ ؛ ونبرة حقيقية تعبر عن شخصيتى الجديدة ، من أنتِ ؟

(٢)

لم ترد علىَّ ، نظرت إلى وجهى ، وقالت: " والنبى أنت فايق يا مرسى ، انزل يا خويا روح شغلك ، وهات لنا قرشين ، نفتح بيهم البيت ".

جرى طفل صغير بين أحضانى ، وقال بحب غريب: " بابا" ، نظرت فى عيونه الضاحكة ، تحسست شعر رأسه ، فقال بخنوع غريب: " بابا هات جنيه " ، أعدت النظر إلى شعاع عينيه الطيبتين وسألته ببلاهة: " اسمك إيه؟ "

دق جرس الباب ، هرولت المرأة بشعرها المنكوش نحو الباب ، وصرخت قائلة لرجل غريب: " اتفضل يا أستاذ " ، حين اقترب منى ، سألته: " عايز حاجة ، رد باستياء: " أنا محصل الكهرباء " ، امتعضت متسائلاً عن دوره ، فقال الرجل بأدب للمرأة: " غدًا سأعود حتى تدبروا حالكم " .

خرج سعيدًا وهو ينظر ناحية أردافها الممتلئة ، أَغْلَقَتِ الباب بعد خروجه ، وقالت بسخط فى مواجهتى: " وبعدين يا سبع الرجال هنكمل حياتنا إزاى؟ "

كاد المغص يفتك بأمعائى ، فسألتها بأدب: " ممكن أدخل الحمام " ، استدارت بغرابة ناحية وجهى وعيونها ممتلئة دهشة، قائلة بحب: " اتفضل يا خويا ، ومالوا " ، سارت أمامى حتى باب يتيم مشروخ ، فتحته وهى تردد حزينة: " اتفضل ، اتفضل يا سبع االبرمبة ، اتفضل اعمل زى الناس " .

أغلقت الباب بقوة ، وتركتنى وحيدًا ، وقفت وسط الملابس المتسخة التى ملأت الأرضية ، عبثًا حاولت أن أعمل زى الناس ، المغص يفتك ببطنى ، بقايا السموم ترفض الخروج من جسدى .

عاودت تكرار المحاولة ، لكن الصريخ والعويل خارج الشقة يفزعنى ، ويعوق نزول الغيث من بطنى ، رفعت سريعًا بنطلونى وخرجت .

فوجئت بالمرأة التى تدَّعى زوجتى تسخر قائلة: " يتشاجرون على ثمن مسح السلم وثمن المياه ، انتظر حتى يهدأوا ويدخلوا شققهم واخرج دون أن يراك أحد ، سوف يمنعونك من النزول على السلالم التى لا تدفع ثمن تنظيفها " .

جلست خلف الباب منتظرًا انتهاء شجارهم ووقف الصراخ والسباب لشخص يُدْعَى " مرسى" لأمرَّ دون أن يحسوا بطيفى .

الصور التى تملأ الحوائط لرجل يشبهنى والمرأة الغريبة تدهشنى ، الألوان المتداخلة للعب الأطفال الكثيرة تتناثر بغرابة فى الزوايا ، وجوه بلاستيكية على أشكال بشرية وحيوانية ، تضحك ببلاهة كلما أمعنت النظر إليها ، الدمى القماشية المنتشرة بكل مكان تصمت مشفقة على جهلى .

الملابس الداخلية المتراكمة على السجادة القديمة تُخْرِجُ روائح غريبة كأنها عرقى ، الصراخ والعويل خارج الباب يخفت ، فأتجهز للهروب ، أفتح الأكرة مندهشًا من دخولى شقة لا توجد بها إلا امرأة وطفل مذهولان من رجل لا يعرفهما.

(٣)

هاجمونى ، وأنا أترجل وحيدًا درجات السلم ، جرجرتْ نساء وصبية رافعين الشماريخ جسدى المحلول ، نزلوا بكل ما أوتوا من عزيمة وقوة على ضلوعى ، قائلين: " لن تمر قبل أن تدفع " .

لم يوقفهم نحيبى ، أسمعهم يهددون ويصرخون وهم يطرقون رأسى بالعصيان: " أين ثمن نور السلم ، ومياه الشرب ، والغاز الطبيعى ، وأجرة البواب يا محتال ؟ لماذا نتحمل نحن ثمن مصاريف فضلاتك ، ألست مثلنا ؟! ويجب أن تدفع ثمن أستمرار حياتك " .

تسرب الدم النازف من رأسى على ملابسى ، وخرجت المرأة التى ادعت أنها زوجتى ونامت على جسدى ، لتعوق أياديهم التى هرست جسدى ، كانوا يتلذذون وهم يشاهدون الألم النازف من عيونى .

سمعتهم يقولون لبعضهم: " كفاية كده عليه النهارده ، لن نجعله يدخل شقته وهو عائد ليلاً ، إلا إذا دفع "، فوجئت بالمرأة التى تدَّعى أنها زوجتى تصرخ وتقول : " حرام عليكم ، مفيش فى قلوبكم رحمة " .

بكي الطفل الذي كان بين أحضانى منذ لحظات بحرقة صارخًا " بابا...بابا" ، حين سمعوا صوت الطفل ، عادوا داخل شققهم فى صمت ، ونظروا إلىَّ نظرة أخيرة ، متوعدة ، سمكروا أبوابهم ودخلوا حجراتهم كالحيات وكأن لا شيء حدث.

جاءنى رجل يلبس جلبابًا من الصوف والعرق يتصبب من بين جفونه وصرخ بوجهى ، مطالبًا بقيمة الإيجار المتأخر، هددنى باضطراره لإلقاء أسرتى بالشارع خلال أيام ، أمسكنى من رقبتى قائلاً: " إيجار البيت هو كل ما أملك يا مرسى ، إذا امتنع الجميع عن الدفع فسيجوع أولادى " .

الصمت يملأ مدخل المنزل والرجل يحاول بث الروح بكيانى ، ينفجر غاضبًا مرة أخرى عندما شاهد رجالاً مختلفين ، ادعوا أنهم البقال والمكوجى والطعمجى والفكهانى والجزار ، قائلين برعب حقيقى: " سنأكل جسدك قبل أن تسطو على مالنا ".

عدَّد البقال أصناف الجبن وأنواع اللبن وطريقة توددى أيامًا طويلة ، لأسحب بضاعته التى قيدها بدفتر ديونى ، بكى بحرقة وقال: " لن يكفينى قتله" ، الآخرون انبروا خلفه ، ليسجلوا فى لحظة رائعة ، ديونهم المتراكمة على رجل لا يعرفهم .

بينوا بأمارات واضحة كالشمس ، أخذى بضائعهم وعدم سدادى الثمن ، قالوا بعد أن أعطونى مهلة:" ستعود لتدفع القديم والجديد يا لص ، لن تمر من الشارع حيًا ، قبل استلام حقوقنا " .

تركونى تحت ضغط المرأة وصراخها ، نظرت تعاتبنى على قلة خبرتى ، وحين تأكدت من مغادرة الجميع أدارت عينيها شمالاً ويمينًا ولم تسمع همسهم الخافت ، نظرت مرة أخرى بحسرة على جسدى المهلهل ، وقامت من جوارى ، وأخذت الطفل بحضنها ، وعادت باكية لشقتها بعد أن قالت فى وجهى: " عوضى عليك يا رب" .

(٤)

جلست وقتًا طويلاً على السلالم أحاول مسح الدم النازف عن عينى ، لم يخرجنى من ذهولى إلا وجوه رجال ونساء اتشحت بالغضب ، تجمعوا حولى بخفة ، ادعوا أنهم أهل المرأة التى ادعت أنها زوجتى منذ دقائق ، جرونى على السلالم حتى مدخل العمارة قائلين: " هتدفع المؤخر والنفقة ورجلك فوق رأسك يا محتال" .

حاولت أفهم معنى طلبهم ، لألبى رغبتهم ، خرت عيونهم بالأذى ، ونزلت أكفهم ، بغباء وحقد تلطخ وجهى ، وتعجبت من كونهم أهل امرأة تُدْعَى زوجتى .

أكدوا أننى مدين بمبالغ مالية كبيرة بأحكام نهائية ، صادرة من قاضٍ شريف ، لعدم إنفاقى على امرأة وطفل ، كنت يومًا ما رب عائلتهم.

ادعوا أشياء كثيرة دون أن يسمعوا نحيبى ، صرخوا بكلمات غير مفهومة وبصقوا على وجهى ، جرونى لأركب عربة زرقاء ، قال أحد المارة إنها سيارة البوليس ، وقفت أمام المقهى فى انتظار حضورى .

المسافة الصغيرة بين باب المنزل والمقهى تمتلئ بالمتفرجين ، بعضهم يلقى فى وجهى بقشر الموز والبرتقال والطماطم الفاسدة ، وبعضهم ينظر بشفقة ويمصمص شفتيه بتعجب ، الأغرب أن الأطفال الصغار جروا ورائى ، وألقوا بالطوب فى وجهى ، وضحكوا وهم يقولون بصوت عالٍ: " من دا بكره بقرشين ، عجل وصغير بقرشين " .

وجوه عابثة مطفية تقترب منى ، يدَّعى أصحابها أنهم زملائى الموظفون ، قالوا بحسرة حقيقية: " امتنع عن ممارسة عمله والتوقيع على الأوراق ، حاولنا أن نذكره بدوره ، كان يضحك ويسخر منا ، لم يهب الخصم والتهديد بالفصل ، حاولنا كثيرًا أن نعيده ، لكن الوقت قد مر ؛ لأن قرار إيقافه صدر بعد فوات الأوان " .

قال أحدهم لرجل يُدْعى "صافى بيه": " اشفع له يا سيد ، حتى يعود لديوان المصلحة ، ويمارس عمله " ، صرخت امرأة طيبة ذات شعر مفرود ، ادعوا أن اسمها " ثناء" وتجاورنى

بالمكتب والمسكن قائلة: " لم يجرم فى حياته ، فقط كان يرغب فى الراحة لأيام معدودة ، شتمت الجميع وسخرت منهم قائلة: " نزعت من قلوبكم الرحمة يا كفرة " .

ذَكَرَنِى رجل طيب ، بالمحل الشرك الذى يديره لصالحنا ، وظروفه الصعبة التى يمر بها ، أثنى على دورى فى دعم مشروعاته ، حاول تذكيرى بأيام الشهد التى عشناها معًا بمنزل والدنا ، قال بحسرة: " ارجع لعقلك يا مرسى الدّيانة سيغلقون المحل ، أنت سَنَدِى الوحيد بالدنيا ، لا تتركنى وتهرب يا خويا " .

الطوب الملقى على وجهى ، يعوق فمى ولسانى عن الرد ، ويدفع الدم المنفجر ليغرق ملابسى الممزقة ، العسكر وبعض الديانة يجرون جثتى ، قام الجميع بهمة رائعة بعمل سياج بشرى ، لأمر بسلام من بينهم نحو العربة التى تنتظرنى .

شاهدت رجلاً عجوزًا يحاول منع أذاهم قائلاً: " براحة شوية يا ولاد ، العين بصيرة والإيد قصيرة ، أنتوا عارفين ظروفه " .

سأله الضابط ": أنت والده ، رد بأسى: " أيوه يا بنى "، لطمه على وجهه بالكف ، وقال: " كيف تساوى بينى وبين مجنون يا خرفان؟! "

حاولت امرأة عجوز أن تخترق جمع الأطفال والعساكر والرجال المتشحين بالسواد ، لتأخذنى فى حضنها ، كانت عيونها الباكية تنادينى لأعود لوعيى ، تمكنت رغم الهرج من الوصول لنن عينها ، أخذتنى فى حضنها ، فقلت لها بعد غرقها في الدموع: " من أنتِ؟ "

النحيب المتواصل من قلبها يصل إلى أعماقى ، أهتز غير عابئ بالجميع ، أراها وهى ترضعنى بثديها الحليب ، وتضعنى فى حنان بجوارها على السرير ، ليمتطيها رجل يدَّعى أبوتي فى خوف.

أبكى متشنجًا ، فيعود لروحى رحيقها الطيب ، تمسح حزنى ودمى وألمى فى لحظة فارقة ، قائلة بحب وحنية غريبتين: " أنا أمك يا ضنايا ، ذرفت عينها الدموع وهى تردد بصوت عالٍ: " عوضى عليك يا رب " .

(٥)

ركبت سيارة الشرطة المملوءة بالعساكر والمجرمين ، نظروا فجأة إلى وجهى ، وقالوا ساخرين: " هى ناقصة جنان يا كس أمك ؟ "

سمعت صراخ المتجمعين حول الضابط ، يطالبونه بعدم تركى إلا بمستشفى المجانين ، اشارو بغضب ناحية وجهى الذى ينظر إليهم من خلف قضبان الشباك الحديدى قائلين: " تستحق القتل ، أتدَّعى الجنون لتهرب من التزاماتك ، يا نصاب؟ "

أغلقوا الباب ووضعوا الأقفال الثقيلة على فتحته ليحل الظلام داخل الصندوق الحديدى المتحرك فوق العجلات الواثقة من المطبات وحفر الشوارع .

انطلقت السيارة تخترق الشوارع والأزقة بصوتها المعروف تعلن هويتها ، أرمق وجوه البشر الذين لا أعرفهم من خلف القضبان ، المحلات تمتلئ بملابس ذات ألوان باهرة ، الشوارع تغوص وسط أطعمة وروائح غريبة ، البشر يملأون الأسواق غير عابئين بالجثث التى تملأ سيارات البوليس وتسير من وسطهم متجهة للمجهول .

مر وقت طويل علىَّ ، وأنا أرمق كل شىء فى الطرقات ، فجأة غرس شخص يجاورنى بمطواة قرن غزال فى جبنى ، بحلقت داخل العربة ، لأفاجأ بوجه صبى غريب ، يسألنى: " أنت مرسى؟ " قلت بصدق حقيقى: " لا أعرف " ، قال: " أنا أعرف " لطشنى بكفه على وجهى ليعيد الدم النازف سريانه على ملابسى .

دون اندهاش مسحت العرق والغبار عن عينى وأنفى وفمى ، لأتمكن من التنفس ، حين شاهدنى الصبى غير مهتم ببذاءاته ، ضحك مع زملائه وبعض العسكر الذين يملأون الصندوق ، قائلاً: " مجنون اه ، بس طيب ".

قال كبير العساكر بلطف غريب بعد أن طبطب على شعرى: " أليف وغير عدوانى ، لكنه مدين للجميع ، يجب حبسه حتى يكشف الطبيب الشرعى على سلامة عقله " .

دخلنا مبنى الشرطة ، العسكر المحيطون بأجسادنا يلطخون وجوهنا بالأكف والعصى ، كى نمشى فى الصف ، دون أن ننظر إلى الطريق المؤدى إلى الحجز ، وقفنا أمام ضابط امتلأ شعره بالبياض ، يجلس وراء مكتبه مدونًا أسماءنا والتُّهم الموجهه إلينا بدفتر كبير بحجم ضلفة الشباك .

حين أتى دورى فى الرد على أسئلته ، قام مفزوعًا ، غرس أعماقه داخل عيونى ، وقال: " عامل مجنون يا مرسى ، وحياة أمك لنرجع عقلك ونحبسك يا حرامى ، عايز تنفد بجلدك يابن القحبة ، كان غيرك أشطر يا محتال ".

لكزنى بأنفى وفمى ليعيد الدم النازف سيلانه على ملابسى ، وصرخ : " اسمك مرسى؟ " قلت: " معرفش" ، رد بتوعد غريب: " ماشى ، المصحة هتكشف ألاعيبك ، الدكتور فهيم هيعرفك قيمتك يا بن سنية العمشة " .

نادى على أحد العساكر : " خذه للمستشفى الميرى ، وقابل الدكتور ، ووصيه على المجنون علشان يؤكد رفض الدولة احتيال مواطن يرغب فى التهرب من الدفع، بادعائه فقدان العقل " .

قال ضابط آخر بجواره:" حتى لو أعادته المصحة كمجنون ، فإن القاضى سيحكم عليه ؛ لأن تهمة رفضه القيام بدوره وقعت وربطت برقبته وهو بكامل عقله ، وبالتالى فإن الحكم بسجنه ، لن يسمح أبدًا بعودته " ، ضحك ضابط آخر بوجهى ، كان يجاورهم ويندهش من حديثهم الحامى ، وقال ليخفف عنى: " متخافش يا مرسى متخافش احنا كلنا إخواتك يا وَلَه .

"خمسة"

(١)

بُشْرَى لكل الذين لهم عقول تميز الأشياء والأسماء ، وتفهم روح الباطن من نبرة الصوت ، لهم جميعًا الخلود والعيش الرغيد والحب .

كرر هذه المقاطع ، رجل يجلس أمامى ، بعد أن أدخلنى العسكرى حجرته ، وتركنى وحيدًا بمواجهته .

قال ليقذف المعرفة فى عيونى: " أنت تعرفنى " ، لم أرد ، فاستكمل البحلقة بعينى وسألنى بعد أن رفع أصابع يديه فى الفضاء: " دول كام " .

ضحك عن آخره وقام من خلف مكتبه ماسكًا عصا صغيرة ، وضرب أطراف أصابعى ، قائلاً: " هل تحس بشىء؟ " نظر بجحود فى قلبى وداعبنى كطفل وقال بهدوء:" يا مجنون فاكرنى عاقل " ، وقف فى مواجهتى متسائلاً: " اسمك إيه؟ " فقلت برعب: " ينادوننى بـ مرسى" .

صرخ كمن اكتشف الحقيقة: " أمال عامل مجنون ليه يا روح أمك ؟" قلت والرعب يملأ جوفى: " معرفش " ، كتب كلمات قليلة على الأوراق التى أمامه ، وضغط على زر يجاوره ، فدخل العسكرى مهرولاً لمكتبه ، ليقول بثقة وهو يشير على حطامى: " عاقل وابن جنية خدوه على القسم " .

ضرب العسكرى بحذائه على الأرض قائلاً: " تمام يا فندم " ، وجرنى مرة أخرى لمبنى طليت حوائطه من الخارج بلون الزفت ، سلم الأوراق للضابط ، تشنج وهو يلطخنى على وجهى بأصابع كفه الناعمة ، سبنى بألفاظ غريبة ، ثم قال للعسكرى برفق: " دخله الحجز ياض ، ووصى عليه شبارة " .

ليلة غريبة قضيتها وسط وجوه أصرَّت على مداواة الألم بكتم الصراخ ، أمسكنى من رقبتى صبى طويل يمسك بيده مشرطًا ويضع أمواسًا كثيرة تحت لسانه ، قائلاً بذعر: " اكنس

البلاط وامسح أرضية نضف الحمام يا بن المدهولة " ، قفز آخر على مؤخرتى ، وأخلعنى البنطلون وتحسس أردافى وسط تجاهل الآخرين .

أحسست بشىء غريب يداعب مؤخرتى ، ققفزت بعيدًا عنهم ، لكنَّ صبية آخرين أمسكونى وكتفوا يدى كى يدق زعيمهم شيئًا صلبًا بفتحة مؤخرتى التى نزفت دماءً ، خرت جثتى على الأرض من الإعياء ، تركنى الصبية وهم يقولون ببراءة لشبارة: " غشيم ، يا صحبى ، بكره يتعلم " .

امتلأت جفونى بالندم ، نزح من روحى الجفاف ، ورفض الألم أن ينزل من عينى ، جلست وحيدًا ، والدماء تنتشر بأنحاء جسدى ، محاولاً الاختفاء بجوار الحائط ، لكن الأيدى العابثة بمؤخرتى تمنع دخول النوم الى عينى .

أقوم مفزوعًا لأجد الصبية بجوارى يركبون بعضهم ، ويصرخون بمشاعر مبتهجة من القذف.

حاول مرة أخرى الصبى الذى وضع عضوه بمؤخرتى أن يقترب منى ، لكن النار التى تخرج من جسدى دفعتنى إلى مقاومته ، ازددت شراسة وهو يحاول مع أقرانه الإيقاع بى ، أدخلت أصابعى فى عينيه ، وأكلت أطراف الآخرين وأجسادهم بأسنانى .

امتلأ المكان بالدم بعد هياجى ودك عظامهم بأقدامى ، صرخوا جميعًا وخبطوا على الأبواب والشبابيك المغلقة قائلين: " الحقونا ، مجنون ، الحقونا " .

فتح العسكر الأبواب ليهرب المساجين من خلف الأبواب ، ناشرين الهرج فى القسم ، تركونى وحدى بالحجز كى ألحس بقايا اللحم والدم النازف من أسنانى .

اقتربت من الأبواب المفتوحة ، لم يكن هناك أحد ، تجاوزت بأقدامى بقاياهم ، دُسْتُ على جثث كثيرة مجهولة ، قلت لنفسى فى غرابة كقائد منتصر : " لن يعوقنى أحد "، استمرت قدمى فى التقدم حتى باب القسم ، وخرجت ، الجميع كان غارقًا فى الصراخ بمواجهتي ، كأنهم يطالبوننى بديونى ، تحولو جميعًا إلى دائنين ، وأنا الوحيد الهارب من الديْن !

منظر الدم الذى يملأ وجهى وأصابعى يخيفنى ، يبتعد البشر المحيطون بجسدى هاربين ، رغم صراخهم بالمطالبة بحقوقهم المربوطة بعنقى .

تجرى مجموعات كثيرة منهم أمامى ، هرولتُ وراءهم ، خافوا وابتعدوا ، ردد آخرون من حولهم: " مجنون ...مجنون " .

أحاطنى صبية وأطفال كثيرون ، قذفونى بالطوب فى وجهى ، فهربت بعيدًا ، لكن يدًا غريبة قبضت على رأسى مرة أخرى وقالت بحب: " لا تخف ، نحن أهلك ".

سحبونى مرة أخرى للسيارة التى تقف أمام القسم ، أدخلونى بهدوء صندوقها الحديدى وأغلقوا بابها ، وانطلقوا بالطرق الواسعة المحاطة بالبشر الهادرين ، حتى وصلوا إلى مبنى ضخم طليت حوائطه باللون الأزرق .

وقفت السيارة أمامه صامتة لدقائق ، وصرخ سائقها بصوت غريب ، ففتح أحد الجنود البوابة ودخلت السيارة لساحة واسعة مزروعة بأشجار الصنت ، وضعوا القيود بيدى وقدمى قبل نزولى وقالوا: " لا تخف ، نحن أهلك يا مرسى " .

حملنى شخص ادعى أنه أخى ، رفع قيد قدمى رجل آخر عجوز ادعى أنه والدى ، وأدخلونى بهدوء حجرة مغلقة لأشاهد مرة أخرى الطبيب الذى ادعى الجنون ، وكتب عنى بأوراقى الشخصية قبل ساعات: " عاقل وابن جنية " .

قال ليهدئ روعى: " يا مرسى أنت تعرف الأوامر ، وأنا موظف غلبان ، إذا كتبت أنك مجنون ، فسوف تعتقد السلطات أنك رشتنى لتتهرب من ديونك ، كان يجب أن يقروا أولاً بفقدانك العقل ، لأقر بقلمى دون مسئولية على ما شاهدوه بأنفسهم ، ملبيًا رغباتهم فى تقسيم الناس وتصنيفهم ".

نظر بحب حقيقى ناحيتى وقال: " أنت الآن وسط أهلك ، ستمكث معنا فى المستشفى ، اعتبره بيتك ، ولا تخش من شىء ، لن يطالبك أحد بديونه بعد الآن ، اطمئن يا بابا "، نظر بتشفٍّ ناحيتى كأنه يحقد علىَّ مستكملاً: " نفدت بجلدك يا بن الجنية ".

حدثنى بخوف عن مزايا المصحة ، ضغط على زر بجواره ليدخل بعض الرجال ذوى العيون المرعبة ، قائلاً لهم :" ضعوه بعنبر خمسة ، عرفت من صوت أحدهم أننى أشد خطورة من كل الكائنات المخفية بالعنابر المتراصة أمام عينى بطول الطرقة التى ليس لها آخر .

سحبنى رجل فاقد الإحساس ، نظر إلى عينى برعب بعد أن أخلعنى ملابسى بمكان يشبه حمام المرأة التى ادعت أننى زوجها ، ووضعنى بحوض مياه ساخنة ، ثم ألبسنى بالطو أبيض قصيرًا ، وقال: " رقمك خمسة يا نمرود " .

لطمنى على خدى بعد أن وضع زميله سلك كهرباء عاريًا على جسدى عدة مرات ثم سألنى: " اسمك إيه يا مجنون " رددت مرعوبًا: " مرسى" ، قال الرجل القابض على وجهى بعد أن وضع الآخر السلك العارى على رقبتى: " اسمك خمسة" .

سألنى مرة أخرى: " اسمك إيه ؟" رددت هامسًا: " خمسة " ، قال زميله بعد أن ألقى السلك على الأرض: " شاطر يا خمسة ، شاطر " .

شدنى لأسير خلفه وهو يناولنى صينية ويضع عليها قطعًا بنية ساخنة من العجين ، وتتضح برائحة قذرة قائلاً: " طعامك يا خمسة " .

طلب منى أن أمضغه بفمى وابتلعه كى لا أموت ، صرخ وهو يغلق حجرتى الضيقة ليتركونى آمنًا بوحدتى قائلاً: " إذا لم تأكل فسأضع السلك الكهربائى على خصيتك " ، مرة

أخرى هززت رأسى علامة على الطاعة ، فعرف أننى فهمت أوامره ، سمكر الباب وقال بصوت عالٍ: " توب علينا يا رب " .

أيامًا طويلة عشتها بينهم دون أن أصدق جهلهم بهويتى ، فأنا أعى كل شىء ، وأحس بنبرات الأصوات وخطوات الأقدام والشرر المتطاير من عيونهم ، والألم الذى يمزق قلبى وجسدى .

أفهم أحاسيسهم المتناقضة والمرعوبة ، لكنى لا أتذكر شيئًا من أيامى الماضية ، يقولون عنى إننى كنت موظفًا محترمًا ، وأمتلك جاهًا وسلطانًا .

وفى يوم لا أتذكره فقدت أعماقى ؛ لأننى كرهت الالتزام ، لم يفهموا معنى ذلك ، كانوا يتندرون على ادعائى ويقولون: " مجنون" ، رغم أنهم لو سألونى عن أى شىء حدث أمام عينى ، فسأعيده مرة أخرى دون نسيان شىء ، يعلمون جميعًا ، فهمى لدور اليد والقدم ، وتعرفى وحدى على عدد أصابع أطرافى ، وبعد ذلك يتهموننى بالجنون .

الوحيد الذى كان يؤكد روايتى هو زميلى بالمصحة ، قال كلامًا اعتقدت أنه حقيقى ، يحكى تجربته بإثارة غريبة ويعيد قصته خلف أسوار المصحة بزهو غير مفهوم .

أكد أنه عاش ستين عامًا يكرر كل يوم نفس الحركات والإيماءات ليغفروا نسيانه ، ويقبلوه عبدًا أليفًا وسط تجمعاتهم ، لكنهم دائمًا يسخرون منه لوضعه قناع الحب على وجهه الشرير .

يقول على البشر خارج أسوارنا الذين يهرولون كل يوم نحو الخراب ، ليثبتوا بسوء نية تفوقهم : " لا أمل من إعادتهم " ، يطيب خاطرى قائلاً : " لا يهمك انطباعاتهم ، فالجميع يعلم أنك هربت ، ويحقد على اسمك الجديد " ، يصرخ ضاحكًا بعد تركى وحيدًا: " خمسة وخميسة على قلبك يابطل".

زارنى بشر كثيرون ، ادَّعى بعضهم أننى كنت أعمل معهم ، تحسست بكاء آخرين ، ادعوا أنهم أهلى ، شربت من أياديهم بحب عصائر ينز طعمها بالمذاق الحلو ، أعطونى زجاجات مياه عذبة باردة ، لأحتفظ بها تحت سريرى .

ذرفت دموعهم على خدودهم وهم يحتضنونني ، كأنهم فقدوا عزيزًا غاليًا ، رغم أنى موجود بينهم وأتحدث معهم ، وأحس بمشاعرهم المهلهلة تجاهى ، لكن عقولهم الخاوية ، مصرة على أننى فاقد العقل ، رغم ذاكرتى القوية التى يمكن أن تعيد رسم وجوههم وأحرف الكلمات التى رددوها فى زياراتى ونبراتها المتنوعة .

لكن هيهات لكل الذين عرفونى كـ " مرسى" ولم يعرفوا شخصيتى الجديدة ، لن يحسوا أبدًا بالمتعة التى أعيش بها وهم يحاولون تذكيرى بحوادث غريبة لا تعنينى .

أبدًا لن يصدقوا بأن اسمى الآن أصبح " خمسة" ، بينما "مرسى" الذى يعرفونه قد مات للأبد ، ولم يعد إلا بذاكرتهم فقط .

الوحيد الذى تفهَّم وجهة نظرى هو الدكتور " فهيم" ، أدرك رؤيتى الجديدة للأشياء ونصحنى لكى أرتاح من جلسات الكهرباء ، وهرس جسدى بأظافر الممرضين التظاهر بالشفاء والاستجابة لتخيلات الأهل والأصدقاء وزملاء العمل على عودة ذكرياتى وتاريخهم الطويل فى وعيى ، والتحدث أمامهم بثقة كأننى عولجت من مرض الجنون الذى كاد أن يفتك بعقلى .

حين أكد لى أن هذا الادعاء هو حيلتى للنجاة من الأسوار ، والرجوع مرة أخرى لشوارع ومنازل الذين يدَّعون معرفتى ، قلت: " وهل سأنجح يا دكتور؟ "

بنبرة رائعة أثنى على إمكانياتى الكبيرة فى تذكر كل الأحداث منذ موافقتى بأن يكون اسمى " خمسة" ، مما يؤكد صحة خلايا عقلى ، وأننى فقط أدعى النسيان لرفضى الاستمرار .

قال بحب: " يمكنك التفوق على نفسك ، إذا قررت أن تصدق قصصهم ، وتؤكد مواقفهم المكررة بنبلهم وعطفهم عليك ، والتى تؤكدها الوثائق الرسمية ، حينئذ سيقبلونك ، رغم أنهم لن ينسوا أبدًا ادعاءك يومًا ما ، بأنك كنت تلبى أوامر الممرضين حين ينادون عليك باسم يظهر فى السجلات كرقم "خمسة" .

شىء رائع أن تقرر العيش كمولود جديد رغم تاريخك الذى لا تتذكره ، لكنك تؤكد لكل من يحكى جزءًا من حكايتك ، أنك أنت الشخص ، الذى تناولت معه الطعام ، واشتركت معه فى المسابقات واليوميات المتنافسة على إظهار ضعفنا ، وعشتم معًا تحت سقف واحد متألفين بالحب طوال سنوات طويلة .

بعد وصايا وعلم الدكتور " فهيم " ، أقابل الزائرين كل يوم بوجهى الذى يرغبون فى معرفته ، ليتأكدوا بأننى تذكرت كل ما بيننا ، وفى الليل أعود لاسمى الحقيقى ، لأعيش وسط المصحة ، كرجل يعرف إحساس الدكتور المعالج ، وعيون ونبرات صوت ممرِّضيه ، ووحشة حجرة الكهرباء ، وطعم الخبز الجاف فى الأطباق الحديدية السمراء .

تأكد الجميع من وعيى العائد بعد تمكنى من مجاراة أعماقى المقسومة ، أعامل النزلاء كمجنون اسمه " خمسة" ، وأحتضن الزائرين كعاقل اسمه " مرسى" ، الجميع صدق أننى مدعٍ

ومحتال لقدرتى فى العيش بكلتا الشخصيتين بنفس البراعة ، فوافقوا على خروجى ومواجهة مصيرى ، وإعادة المياه لمراسيها ، واسترجاع وجوههم العابثة من أعماقى البعيدة .

جاءت المرأة التى تدَّعى أنها زوجتى واحتضنتنى قائلة:" عامل إيه يا حبيبى يا نور عينى؟ " قلت بأسى غريب: " كويس " ، تمادى آخر يدعى أنه أخى فى البكاء وهو يستقبلنى بحضنه قائلاً: " حمد لله على السلامة يا خويا " .

سحبونى بعد أن وقَّعوا على الأوراق وتأبطوا يدى لخارج الأسوار .

فتح أخى الباب الأمامى بسيارته لأدخل كَمَلِكٍ عائد من الأسر ، جلست زوجتى فى الكنبة الخلفية تبحث عن شىء مشترك يجمعنا نحن الثلاثة ، حين فشلت وأحس الرجل الذى يدعى أننى أخوه بعجزها ، انفجر ضاحكًا وهو يقول: " أهلاً وسهلاً بعودة يابطل " .

حين نزلت من السيارة شاهدت المرأة الباكية يوم ركوب سيارة البوليس ، التى ادعت أنها أمى ، تأخذنى بحضنها وتقول ببراءة: " نورت بيتك ومطرحك يا ضنايا " .

دخلنا وراءها المنزل ، استقبلَنا رجل عجوز مخرف يدَّعى أبوتى ، اصطفوا جميعًا حول مائدة طويلة ، رصت عليها أصناف الطعام ، وقالوا بحب: " على شرف العائد لعقله صاحب الجاه والسلطان.

ابتسمت ، ولأول مرة ينطق فمى مذهولاً باسمى القديم قائلاً فى صمت: " مرسى ، مرسى" .

ضحكوا كأنهم نسوا ما حدث ، تناقشوا فى أمور كثيرة ، الديون التى سددوها عنى ، ابنى الذى دخل المدرسة ويحتاج لعنايتى ، عملى الذى طردت منه ، جيرانى الحائرون فى عقلى ، أصدقائى الطيبون الذين يسألون دائمًا عن صحتى .

كانوا يبتهجون ويضحكون وهم ينادون على اسمى ، وأنا أردد أسماءهم مهتاجًا ، ينظرون إلى عينى كل لحظة ليتأكدوا من عودة عقلى ، وأنا أبادلهم نظرات التأكيد التى علَّمها لى الدكتور " فهيم" .

حين انتهت جلسة السمر والطعام ، قالت الأم: " سينام عندى الليلة " ، وافقت الزوجة مؤكدة أنها ليلة واحدة فقط ، ويعود الطير إلى عشه ، كان رائعًا أن أرى فى عيونهم الفرحة بعودتى كأننى بالفعل " مرسى" .

دب الخوف لقلبى ، وأنا أحاول تقمص دور الأب بعد أن ركب على بطنى طفل صغير ، يصرخ بحيرة فى وجهى ويطالبنى بحقوقه فى غضب قائلاً": بابا عايز أشرب ، بابا عايز أخش الحمام ، بابا عايز ألبس ، ألعب ، أنام ، بابا أنت فين ؟ "

نظرت المرأة التى تدعى أنها زوجتى ناحية قميصى تطالبنى بالرحمة لقلبها الملتاع لأدَّعى أمام الأهل حبها ، وإخلاصى لقلبها .

ينتظر أخى أن أتذكر عيونه المبهجة وهو يدافع عنى باعتباره ابن الصّرة، الرجل العجوز والمرأة المريضة ينظران بشفقة إلى قلبى لأبادلهما مشاعر الابن المتفانى الممتن لتضحياتهما .

الجميع يطالبنى بارتداء أقنعة كثيرة ، واعتياد أحاسيس متناقضة فى اللحظة نفسها ، عبثًا حاولت تلبية رغباتهم ، كدت أُمْنَى بالفشل ، لكن كلمات الدكتور " فهيم" أعادتنى مرة أخرى لجو العائلة .

أبادلهم المشاعر التى يحتاجونها فى اللحظة نفسها ، كأننى ساحر أرتدى وجوه الحب والأخوة ، والأبوة ، والبنوة دفعة واحدة ، يضحكون مذهولين غير مصدقين عودتى وشفائى .

صباح اليوم التالى دخل أخى علينا منتشيًا ، حمل خطابًا بيديه ، قائلاً لوالدى بسعادة وهو يرفع الورقة التى أخرجها من داخله ، كأنها عنوان الحقيقة: " قرار عودة مرسى للعمل! "

ابتهج الرجل وقال بمواجهتى:" ألف مبروك يا بنى " ، أخذت الورقة ، وبنفس الطرق التى دربنى عليها الدكتور سمعت مندهشًا قراءته للحروف والكلمات: " قرر السيد رئيس ديوان المصلحة عودة السيد مرسى لعمله لشفائه " .

الأمسية السعيدة التى دخلوا فيها أبهجتنى ، فى نهاية الليلة أخذتنى زوجتى من يدى وحملت حقيبتها ، وسحبت ابنها فى اليد الأخرى ، وودعت أهلى لنعود إلى شقتنا.

كنت مرعوبًا من الظهور مرة أخرى وسط الشوارع وحدى ، لكن أبى أنقذنى بعد وصيته لأخى بضرورة توصيلنا إلى باب شقتى .

طلعت السلالم خلف زوجتى مستعيدًا الدم الذى نزف على ملابسى جراء ضرب الجيران لوجهى بالشماريخ ، لكن مفاتيح الشقق التى دارت فى لحظة واحدة لتلقى على وجهى من خلف الأبواب أحاسيس ومشاعر متناقضة مذهلة.

استقبلنى الجيران كأنهم إخوة، أصوات مختلفة ترحب بعودتى ، أرد عليهم جميعًا: " شكرًا ...شكرًا ، متشكرين يا جماعة " ، دخلت هاربًا شقة المرأة التى تسحبنى وراءها ، أَغْلَقَتِ الباب بعد استأذن جميع المذهولين بعودتى ، وضعت الحقائب على أرضية الصالة ، طبطبت على رأس ابنى ليدخل حجرته .

وقفت مدهوشًا أراقبها ، مستعيدًا كلمات الدكتور "فهيم" ، بادلت الجميع فى رشاقة الأحاسيس التى ينتظرونها منى ، استبعدت منظر الشقة التى طردت منها بأعماق أعماقى ، وحاولت نسيان " مرسى" الذى رفض الاستمرار فى الدوران بالساقية صباح يوم غريب .

أخذتني من يدى ، أدخلتنى الحمام بعد أن أخلعتنى ملابسى ، بللت جسدى بالمياه الساخنة ، وضعتنى على سريرها ، وداعبت قضيبى بحنان غريب ، استعدت منظر الصبية بقسم

الشرطة وهم يهتكون أردافى ، لكن كلمات الدكتور جعلتنى أعود مرة أخرى لحضنها ، فوجئت بانتصابى وقوتى وأنا أركبها كحصان جاسر عصىٍّ عن التوقف.

أجهدتها غير عابئ بإحساسى الجديد ، عدت شخصية غريبة تتبادل الابتسام والحب ، نامت بجوارى سعيدة من النشوة دون أن تقول: " تصبح على خير " .

فى الصباح كنت أعرف طريقى الذى كرره الرجل العجوز ليلة الأمس ، سلمتنى المرأة الخطاب قائلة بحب: " اذهب ولا تخف ، أصدقاؤك ينتظرونك بالعمل " ، أخذت الورقة بعد تأكدى من العنوان ، آملاً الوصول إلى المكان الذى سيعيد هويتى وسط أهلى وجيرانى ، قررت مواصلة طريقى ، مستعيدًا "مرسى" الموظف المحترم ، صاحب الجاه والصولجان .

(٥)

وجوه غريبة لرجال ونساء بأعمار مختلفة ، تدخل بأحضانى وأشم رائحتها ، وتردد بترحاب: " حمد لله على السلامة ، اليوم عيد يا ولاد ، أحلى شاى على حسابى لكل الموظفين ، حضرتِ التورتة يا ثناء ، هاتِ الكراسى يا سيد ".

الجميع يرفع أكواب المياه الباردة ويرتشفها فى عطش واضح ، ويغردون لوجودى ، أصوات متداخلة أخرى تحاصرنى صارخة بكل اتجاه: " غمة وانزاحت يا ولاد ، نورت مكتبك يا باشا ، المصلحة كلها فرحانة برجوعك ، النهارده أجازة بمناسبة شفائك ".

أحاول جاهدًا تذكر وجوههم ، عيونهم ، أفواههم ، وأسنانهم ، لكن هيهات فالذاكرة انطمست ، ولم تعد إلا ذاكرتى الجديدة البكر ، رغم ذلك أبادلهم مشاعر فياضة لبهجتهم برؤيتى .

فى لحظة غريبة كدت أن أقول لهم: " كفاية ، لم أعرفكم قبل ذلك " ، لكن فرحتهم وأحاسيسهم الرائعة ، أعادت لذهنى كلمات الدكتور ، فبادلتهم الضحكات والنكات على المواقف المشتركة التى صنعناها معًا داخل جدران ديوان المصلحة على نبوغى كجهبز يناطح الشياطين دون خوف .

سألتهم: " ألم يغير أحد مكان مكتبى؟ " ردوا بغرابة: " أبدًا ، طوال السنين الماضية ظل صامدًا وسيستمر " ، جلست على الكرسى الضيق بمسانده القوية ، " لون قماش الكرسى شاهد على صمودك ": هكذا قالت السيدة التى تجاورنى ، ويطلقون عليها صديقتى ثناء " .

سلمونى مفاتيح الحجرة والمكتب ، واتفقوا سعداء بضرورة مغادرتى العمل دون التوقيع بكشف الحضور والانصراف ، كدت أسألهم عن طبيعة عملى ، لكننى تذكرت كلمات الدكتور ، فقمت متأكدًا بمعرفتى لكل شىء فى الوقت المناسب .

الآن أصبح لى عمل ودرج ومفاتيح ، بعد أن قرروا توديعى ترجلت وحدى سلالم المصلحة ، مبادلاً كل العيون المبهجة والمرحبة بعودتى الابتسامة الرائعة التى تصنعتها بفتح فمى وتغميض جوانب عينى.

الجميع أكد أننى تجاوزت محنة صعبة ، غير مصدقين رجوعى ، أواصل السير حتى باب الهيئة ، فتح الحارس البوابة بانبهار ، لأمر كَمَلِكٍ يدك الأسفلت بقدميه الشامختين ، استعدت نفسى وأنا هارب من وجوههم لرصيف الشارع قائلاً لنفسى: " كان خمسة أرحم من شخصيتى الجديدة ".

حين نظرت إلى المبنى وأنا أبتعد مذهولاً من الظل الذى يلاحق جسدى ، وجدت جميع الموظفين ينظرون من الشبابيك ناحيتى ويصرخون ملوحين بأياديهم لرجل لا يعرفهم ، كانت وجوههم الباسمة علامة على شىء جيد ، لكنى لم أفهمه.

أخرجت ورقة من جيبى ، وناديت على سائق تاكسى توقف بجوارى فجأة ، قلت بصوت خافت حتى لا يسمع أحد: " ممكن توصلنى للعنوان ده " ، أخذ الورقة وتمعن فى وجهى للحظات ، ثم قال بتعجب: " اركب يا أستاذ مرسى اركب " ، سار بطرق عديدة وتجاوز محطات مختلفة ، ووقف فجأة قائلا: " المنزل رقم خمسة فى شارع السد ، عنوان بيتك يا سيد مرسى ، اتفضل ".

نظرت إلى العداد وإلى الوجهه الساخر من كتابة اسمى وعنوان منزلى بورقة بيضاء ناصعة ، استخرجت عشرة جنيهات كان الرجل العجوز الذى ادَّعى بنوتى سلمها لى ليلة الأمس ، أعطيتها للسائق ، لم يناولنى الباقى ، وطار بسيارته سعيدًا .

تذكرت منزلى ومشاجرات الجيران على ثمن نور السلم ، لكن رقم المنزل المعلق بشكل واضح على الحائط ، ذكرنى باليوم الجديد واسمى الرائع ، فترجلت السلم مسرعًا عائدًا لأحضان الطفل الذى ينادينى بـ " بابا" .

"صَهْين"

(١)

أصبح الآن لى ذاكرة جديدة متفتحة بكر ، فزوجتى المصون تناديني بـ " مرسى" ، وأناديها بـ" مرزوقة " ، وينتظر ابنى " رزق" حضورى ليدخل حضنى ويعلن أبوتى .

حين رأتنى بعد أن فتحت باب الشقة ابتهجت قائلة: " أهلاً بعودتك يا سبع الرجال " ، واستطردت: " الغداء جاهز يا بطل " ، خلعت ملابسى مدعيًا البهجة ، قائلاً: " شكرًا على جهدك يا " مرزوقة " ، لم تكن متعودة على كلمات الثناء ، فردت ضاحكة " بتقول إيه يا بعلى ؟ ده أنت جوزى أبو عيالى " .

كانت تأمل بسماع كلمات الثناء مرة أخرى ، فكررتها وهى تضحك مبتهجة بزوج جديد ، اسمه وملامحه ودَخْلِتُه من باب الشقة عليها تبشر بالخير .

أكلتُ وشربتُ ولعب "رزق " معى ، وتشاجر على الجنيه المعدنى الذى طلبه ليضعه فى الحصالة ، أعطيته ثلاثة جنيهات إضافية ، فدخل حجرته مبتهجًا منتشيًا بأبيه الجديد .

دخلت نوبة نوم عميقة لمدة دقائق على كرسى الصالة ، صحوت فيها على همس زوجتى التى داعبتنى بحياء ، كى أعيد مشهد الأمس الذى تصلبت فيه أعضائى وأنا أمارس معها الجنس .

جنت المرأة حين قمت من إغفاءتى ودخلت الحجرة متلهفًا على فرجها العطشان ، حين انتهيت من مهمتى وكانت سعيدة ، طلبت منى النزول للشارع والجلوس على المقهى ، أو زيارة أمى وأخى ، أو الذهاب للجامع لأصلى جماعة مع جيرانى وأشكر الله على عودتى سالمًا.

كانت تجربة مثيرة لرجل ذهب لعمله ، وعاد مبتهجًا لمنزله وتناول غداءه ، ومارس الجنس مع زوجته وعاشرها بشبق ، ثم قرر أن ينزل للشارع ليستعيد هويته .

بالصدفة قابلت أخى ، وزوجته وبنتهما الجميلة ، قابلونى بدهشة وابتهاج قائلين بصوت جماعى:" تعال معانا السوق "، لم أرد ، فاعتبروا سكوتى موافقة .

سحبنى الرجل من يدى وسار صامتًا يبحلق من حين لآخر بوجهى حتى وصلنا إلى أول السوق ، توقف أمام الفكهانى الذى استقبلنا بالابتسام والترحاب ، وحلف ميت يمين لأن أشرب عصير قصب على حسابه .

نسى بخفة مطالبته بديونى وإيذائى بمشاركة البقال والجزار والفكهاني ، لكن زوجته قاطعت صمتي و قالت : " لا يهم العصير ، المهم ألا تسرق يا فكهانى فى الميزان" ، ضحك عن آخره ، ووجه لىّ الكلام ، مشيرًا إلى طهارة يديه وقلبه ، فصدقتُ على كلامه ، دون أن أفهم مغزى ابتسامته الرائعة .

قال أخى سعيدًا: " اوْزِنْ لنا ثلاثة كيلو برتقال بلدى " ، قلت لنفسى: " ما الفرق بين أنواع البرتقال ؟" رد كأنه يسمعنى: " أبو سرة زى المانجو ، واستكملت زوجة أخى:" احنا عايزين برتقال سكرى يا أبو العراف ".

اقتربت ابنة أخى الصغيرة منى قائلة : " ازيك يا عمى ، ناولتها صامتًا باقى كوب العصير ، فشربته دفعة واحدة ، ثم قذفت بالكوب فى وجه ابن الفكهانى الذى كان ينتظر منها أن تترك له الرشفة الأخيرة ليتذوق طعم السكر .

صرخ الفكهانى فى زوجة أخى قائلاً: " أدبى بنتك شوية ، يا أم لسان طويل " ، ألقى ابنه بالطوب فى وجه ابنة أخى ، وبدأت مشاجرة ، لكن الفوال والمكوجى والقهوجى ، جروا بسرعة ناحيتنا ، وسبوا الجميع قائلين: " اعملوا حسابًا لعودة الأستاذ مرسى يا غجر " .

شدنى أخى من يدى وهو يسب الحى بمن فيه ، الوجوه الكثيرة المبتسمة بوجهى دون داعٍ تذهلنى ، العيون الشريرة المخيفة داخل الدكاكين ترمق ظهورى بالسوق وتتابع أحاسيسى فى رعب ، يضع أخى يده على كتفى كأننى عاقل أعرف الطريق المجهول إلى منزله ، وأستمر سيرنا دون هدف .

سمعت زوجته تقول للمارة بصوت داعر لترد البغض لأعماقهم: " توب علينا بقى يا رب" .

(٢)

نظر البائعون بغرابة ناحيتنا دون أن يفهموا معنى صراخها ، سمعت أحدهم يتندر قائلاً: " لا عتاب على عائلة الهنود " ، رد آخر من داخل محله: " عتاب الندل اجتنابه " .

اشتكى أخى من حقدهم وغشهم قائلاً: " محل الأدوات المنزلية الذى نملكه بشارع النهضة أصبح على شفا الإفلاس ، الجميع يسرق ويغش ، لا أحد ينجو من مكرهم ، حتى ربات البيوت أصبحن شغوفات بمعرفة دور الأجهزة الجديدة ".

واستكمل كتاجر فاقد الشهية بأسى: " بعد ما يطلعوا عينك فى الفصال ويتعرفوا على الأسعار يتركونك ويذهبون إلى أقرب بائع بضائع صينية ، ليشتروا نفس البضاعة بنصف الثمن ، ويتركون بنفس راضية المكوجى يستبدل الملابس ، والترزى يدعى سرقتها ، والفوال يضع الرز على الفول ، ويخلط عجينة الطعمية بالعيش المعفن ، والطابونة تبيع الدقيق للحمير ، والجزار يخلط اللحم البلدى بالمستورد ، والكبابجى يشوى لحم الكلاب ، ليتناوله الناس بلذة واشتهاء غريبين ".

أثناء سيرنا وهو يحكى عن مآثر أهل الحى ، توقف أمامنا فجأة موتوسيكل وخطف صبية بوجوه ملثمة حقيبة زوجته ، وطاروا مختفين عن الأنظار .

صرخت المرأة تسب اللصوص ، وتركنى أخى وحاول اللحاق بالموتوسيكل الذى انزوى بالحوارى الخلفية بلمح البصر ، فعاد خالى الوفاض ، ووجهه يمتلئ حسرة .

سمعت نبرة أصوات المجتمعين حولنا بالسوق المملوءة بالتشفى وتقول فى همهمات هادئة: " تستاهل زوجة المحتال ، تاجر الثلاجات المحروقة ".

كانت رحلة غريبة من منزلى حتى شقتهم بنهاية السوق ، نظرت زوجته بغيظ ناحيتى وقالت: " إيه اليوم الأسود ده ، اصطبحنا بوش مين النهارده!

كدت أقول لها ، إنى لا أعرفها ، لكنى رأيت شررًا يتطاير من عينيها ، وتذكرت نصيحة الدكتور " فهيم" ، فعدت لعقلى ، وقلت مبتسمًا بحب لأواسيها: " شدة وتزول يا مرات اخوي ياغالية" .

وقفوا أمام باب الشقة محتارين فى البلوة التى رزقوا بها ، عندما فهمت رغبتهم استعدت قناع " مرسى" الجديد واستأذنت ، رد أخى عازمًا علىَّ كمراكبى يجدف بوسط المياه البعيدة: " لازم تخش شوية يا خويا ، اشرب حتى شوية مية ".

تركنى لأهرب ، دون أن ينظر ناحيتى ، ففهمت مغزى الأخوة الجديد الذى كنت قد نسيته أيام كان اسمى " خمسة" .

فاجأنى بالصراخ من خلف ظهرى وهو ينادى على اسمى بصوت عال وسط السوق: " يا "مرسى " يا خويا ، انتظر .. انتظر " .

عاد إلىَّ مسرعًا ، سرنا صامتين عدة أمتار ، ثم توقف أمام باب محل مغلق ، وأدخل المفاتيح فى فتحة جانبية ، وقام مرة واحدة برفع بوابته ، وقال كأنه فارس اجتاح أرض الأعداء: " اتفضل يا خويا يا شريكى يا بن أمى وأبوى ، اتفضل ، لازم تشرب الشاى ".

قلت لنفسى صامتًا: " ظلمت الرجل الودود المضياف ، وعاد ليصحح أخطاءه ".

طلب شاى سكر زيادة من القهوجى الذى يجاور محله ، شد كرسيًّا بجوار مكتبه قائلاً: " لا يغرك الأجهزة التى تملأ المحل ، هى أمانة عندى ، يأخذون مقابلها أوراقًا وشيكات على بياض ، حين أبيعها ، أرد لهم الثمن ، وآخذ جزءًا بسيطًا من الربح ".

حلف ميت يمين بأن دخله لا يكفى بيته ، لكن الأحوال ماشية ، عدد فى نهاية حكايته حجم المصاريف والديون والأقساط والجمعيات التى يعجز عن الوفاء بها ، بالفعل أشفقت عليه ، لكننى كنت حائرًا لأننى لم أفهم سبب إحساسى المتناقض بأعماقى تجاهه .

تحندق على نفسه ولف حولى بعد انتهائى من كوب الشاى ، وقال بخضوع: "أنت عارف يا خويا ظروفى المتلخبطة ، الديون بتزيد علىَّ ومش عارف أروح فين ، بعد رجوعك

لازم تعرف اللى ليك واللى عليك ، مراتك " مرزوقة " أخذت منى عشرين ألف جنيه طوال مدة مرضك ، علشان تقدر تعيش هى وابنك " رزق " وتفتح بيتك ، عملتُ حساب حبل الصّرة ولم أوقعها على أوراق ، لكنى دونتها عندى فى الدفتر ".

نظر إلى الدفتر بحب رائع ، ثم قال بعد لحظة صمت:" كله بالدفتر يا مرسى ، كله بالدفتر ياابن امي وابوي " ، واستكمل بصوت هادئ بعد تغيير ملامحه قائلاً:" أنا مكسوف منك أوى يا خويا ، أقولك عشان مزنقكش ، ممكن تسدد لى كل شهر مبلغًا ، كأنك داخل جمعية ، لحد مدينك يخلص " ، حلفَ ميت طلاق بأنه لولا ظروفه الصعبة ما طالبنى بالمبلغ ، واستكمل:" إن كان على حساب محلنا المشترك ، فأنت تعلم دائمًا أننا نعمل بالخسارة ".

مسحت يدى بعفوية فمى وأذنى ووجهى وشعر رأسى وقلت بدهشة: " آخر الشهر كل شيء يتدبر يا خويا ، ولا يهمك " ، استأذنته بعد أن أهملنى ، ليهتم ببعض الزبائن الذين ملأوا المحل عن آخره .

سرت بالشارع مستغربًا جنس الديانة العجيب ، هم دائمو الشكوى بسبب عجزهم عن دفع المصاريف والأقساط التى تلاحقهم ، سألت نفسى ببراءة: " أكل هذه الأموال المتراكمة علىَّ وحدى ، ومتى صرفت كل هذه المبالغ؟ "

استرجعت ببرود نصائح الدكتور فاستكملت سيرى ، وكأن لا شيء حدث ؛ فحسب قانونه الذى أتبعه منذ خروجى ، فإنى سأفهم كل شيء فى الوقت المناسب ، قلت لنفسى صامتًا:" لا تستعجل يا مرسى خليك رويح " ، أعجبتنى النصيحة التى قدمتها لنفسى ، فأعدت بصوت عالٍ مبتسمًا وسط ذهول البائعين والمشترين الذين يملأون السوق:" خليك رويح" .

حين شاهدت اسمى المتلألئ مكتوبًا ببنط عريض متناسق خلاب " خمسة فى خمسة " على لافتة محل كبير ، تذكرت اسمى الذى تمكن " فهيم" مع ممرضيه بالمصحة من طمسه داخل أعماقى تحت تهديد الكهرباء والنوم عاريًا بحجرة الثلاجة .

مرة أخرى تذكرت وجه " مرسى" بعد فقدانه ، متجاهلاً ما ارتكبوه فى حقه من جرائم ، أحاول قبول شخصيتى الجديدة ونسيان نظرات الدكتور المعالج لأصدق عن ثقة الحقائق المرعبة التى أكدها بحثه عن مكنون روحى .

أقنعنى بعد مرور الضغط الكهربائى العالى للأسلاك بجسدى بأننى يمكننى التحايل وارتداء الأقنعة المتعددة ، والادعاء مرة أخرى بأننى عدت "مرسى" الذى لا يعرفهم ويعرفه الخلق جميعًا .

انتظروا منى القيام بنفس الدور ، كانوا متأكدين من حكمهم القاسى ؛ لأنه سبق قبولى القيام بالدور القديم ، فاستحققت عن جدارة لقب العاقل الوحيد .

(٣)

حين عدت للمنزل بعد زيارة السوق ، ورؤية عيون أخى وزوجته أمام منزلهما ، التى لا يمكن نسيانهما ، وعلى غفلة منى صرخ شخص بداخلى:" أشرار وقلوبهم بلا رأفة " .

لكن زوجتى التى تعلم أننى شفيت تمامًا من شخصية " خمسة" التى لبستنى بعد مرضى ، وعدت الزوج المطيع ، استقبلتنى سعيدة منتظرة قوتى على السرير ، وانتصاب أعضائي وأنا أركبها .

مرت لحظة مباغتة سريعة كأنها لم ترنى ، فقالت على غرة منى: " البقال والمكوجى ومحصل المياه والنور ، جاءونى وطالبونى بالديون المتأخرة " .

لم أرد ، فقالت لتواسينى: " بكره هتُفْرج يا خويا ، هترجع شغلك تانى وتعود بالخير والسعادة ، عارفة أنك كسيب وفهلوى ، منذ زواجنا لم تتأخر أبدًا عن دفع الحق ، ولا يهمك ، كله هيتدبر " .

دق باب الشقة ففوجئت ببعض الرجال والنساء الذين أعرفهم يوم جرونى على السلالم وادعوا أنى مدين بالمؤخر والمقدم والنفقة الموثقة بحكم القضاء لزوجتى وابنى ، صرخوا بحب: " طب قول اتفضلوا يا عم مرسى" ، قدمتهم زوجتى قائلة بابتهاج : " أخى جزرة ، وزوجته سوسو ، وأختى طماطم ، وزوجها فلفل " ، احتضننى أبناؤهم بغرابة ، فقالت زوجتى: " الله بقى ، ما أنت عارفهم " .

حلفت ميت يمين بأنهم جاءوا فى موعد الغداء ويجب أن يأكلوا ، رد أخوها: " حماتى بتحبنى يا مرزوقة " ، اليوم فقط يؤكد "جزرة " بأن زوجتى " مرزوقة" من عائلة كريمة ، قلت لنفسى بصمت: " شيء مدهش أن أقاربها يتسمون بأسماء الخضراوات " .

قال " جزرة " بهدوء فى أذنى: " تنازلنا يا عم عن كل القضايا ، المحامى أخذ ألف جنيه وأصبح ملفك نظيفًا " .

انبرى " فلفل" مهطلاً بالكلام: " مصارين البطن بتتخانق يا جدعان ، والفلوس آخر حاجة تزعلنا من بعض " ، حين لم أفهم مغزى حوارهم ، قالت أخت زوجتى " طماطم": " آخر الشهر يا جزرة يسدد لك كل ديونك ، رد عليها قائلاً:" براحته يا ختى ، احنا أهل ، أمال إيه ".

أكدوا جميعًا عدة مرات أننى سأسدد آخر الشهر ديونى التى قام بدفعها للمحامى بدلاً عنى .

شىء مدهش أن يحيطك بشر يطالبونك بديون لم تقترضها وهم يصدقون أنك اقتنعت فعلاً أنها برقبتك ، وبأنك ستتفانى لتدفع آخر قرش بجيبك ، وترد لهم مالهم .

شىء محزن أنك مدين طوال الوقت ، وليس عليك إلا تقديم الشكر لدائنيك ، إنهم لا يجبرونك الآن وحالاً لتدفع ما عليك ، تقديرًا لظروفك ، فلذلك خرجت منى كلمات الاعتذار والشكر " لجزرة" نسيبى منمقةً ، فقلت بحب مفتعل كما دربنى الدكتور "فهيم": " متشكرين يا أخ جزرة آخر الشهر يا خويا ربنا يسهلها " .

أكلوا وملأوا بطونهم وحولوا الشقة إلى مزبلة حقيقية ، آخر الليل بعد قضائهم على كل الأكل بالمطبخ وتنظيفهم أرفف ثلاجة المرأة الغلبانة ، قرروا بحب الاستئذان ، لأنهم لا يمكنهم المبيت الليلة خارج شققهم لأنهم مرتبطون بأعمال .

قلت لنفسى كأننى شخص آخر: " أى أعمال يمكن أن يقومو بها سوى الاحتيال والنصب على خلق الله ليعيشوا عالة على قفا الجميع؟! "

كان الدكتور " فهيم" محقًا ، فلا يجوز لى أن أسرح بعقلى خارج إطار اللحظة ، فهؤلاء البشر أهل زوجتى ، وعاملونى بحب ، فيجب الترحاب بهم ومجاراتهم .

صرخت فيهم على غفلة: " والله أبدًا لازم تباتوا عندنا " ، شكرونى واعتذروا باندهاش على نسيانى كل إهاناتهم ، وتركوا المنزل بعد أن حولوه إلى زريبة .

تمددت على سجادة الصالة وسط الصحون والصوانى والأكواب وبقايا الطعام وقشر اللب والسودانى والترمس والقصب ، لم تتذمر " مرزوقة" وتركتنى أغط بالنوم ، ووضعت على جسدى ملاية السرير كأننى ميت.

أفزعنى صوتها فى الصباح ، وهى تنادى علىَّ لألحق الشغل ، كانت شقتها غريبة ، ألوان لعب الأطفال المتناثرة حولى تثير فى قلبى الحيرة ، وجهى ووجه "مرزوقة" الضاحكان والمعلقان على الحائط يذكراننى بشخص جديد لم أتعوده.

لا أدرى ، لماذا تمنيت فى تلك اللحظة أن أعود لشخصية " خمسة" ، لأعيش وسط المجانين ، حتى لو سلط الممرضون على جسدى كل يوم أسلاك التيار الكهربائى التى يمكن استخدام طاقتها ايضا فى إضاءة الحجرات والشوارع وتشغيل آلات المصانع .

(٤)

حين دخلت مبنى المصلحة التى فقدت بريقها ، وبعد كلمات الترحيب المكررة المعادة ، جاءنى شخص يرتدى بدلة كاملة وجلس بجوارى ، ادعى أنه رئيسى واسمه " صافى" ، قال كأخ ودود: " أنت معانا فى كل عملية ".

حكى كثيرًا عن طريقة تعاملهم كإخوة بديوان المصلحة ، فعملهم فى استخراج الأوراق المطلوبة يجب أن يظل سرًا دفينًا بيننا .

ضحك بهستريا فظهرت أسنانه الصفراء كأسنان المشط ، ورغم أننى لم أفتح فمى ، فإنه انبرى قائلاً بصوت هادئ: " يعنى يا سى مرسى ، أنت وثناء ثلاثون بالمائة ، من العائد الذى يدخل للمكتب ".

قلت له ببلاهة متذكرًا حكمة الدكتور " فهيم": " أنت كريم أوى يا أستاذ صافى" ، رد قائلاً بمكر كأننى أتهمه: " أنت وثناء توقيعكما مهم ، وقسم المراجعة يقوم بضبط كل شىء ليخرج ورقنا سليمًا وقانونيًا ".

حتى لا أفهمه خطأ ، أعاد الحسبة مرة أخرى أمامى بالورقة والقلم ليدلل على أن نصيبى أنا "وثناء " يتجاوز حقنا ، ومع ذلك فهم راضون عن تسليمنا تلك النسبة ؛ لأننا لا نتعامل مع الجمهور .

انبرى وهو يغادر المكتب قائلاً: " احنا سبعة أفراد ، أنت وثناء تأخذان أزيد من ربع العائد ، احسبها مع نفسك "، قلت له: " شكرًا ، شكرًا يا سيد صافى أنت دائمًا شهم ومقدام ".

استغرب أدبى وسلمنى ظرف النقود قائلاً: " عملية اللجنة ، نصيبك وحدك خمسة آلاف جنيه " أعطانى الأوراق لأوقع عليها ، دهشت بالفعل من شخصيتى الجديدة ، تحسست أنفى وفمى كأننى بالفعل تحولت إلى رجل آخر ، لم يعد لماضيه أو مستقبله أى ذكرى بأعماقه.

تذكرت الديون التى طالبونى بها كل أهلى وأقاربى وجيرانى وأصحاب المحلات بعد عودتى من المصحة ، فأمهرت الأوراق بتوقيعى سعيدًا بتسلمى ظرف النقود .

دهشت " ثناء" وأنا أوقع دون تذمر قائلة: " آخر مرة رأيتك فيها قبل مرضك كنت منفعلاً وعصبيًا لرفضك الرشوة ، اليوم توقع بنبرة صوت مبتهجة ، لتؤكد بالفعل أنك أصبحت الموظف الذى عرفته المصلحة بأنه الذى يأكل مال النبى ولا يسمى " .

شيء مضحك أن تقول امرأة لك هذا الكلام ، رغم أنها تسلمت نفس المبلغ الذى أخذته بعد توقيعها الأوراق ، الشيء المدهش الذى جعلها تشك فى عقلى مرة أخرى ، أننى سألتها: " ماذا سيستفيد الرجل الذى وثقنا له العقود وأمهرناها بأختام المصلحة ليدفع الآلاف ، دون أن يسمع حتى كلمة شكر منا ؟"

قالت بغرابة: "الأرض تساوى مئات الملايين ، وصافى وحده نال من هذه العملية مليون جنيه ، ورئيس المصلحة وافق على صحة الإجراءات بعد تسلمه عشرة ملايين ، تمكن صافى بخبراته مع الشئون القانونية بتوثيق عقد البيع النهائى وختمه بشعار قابل للشهر بعد دفع أعلى سعر فى جلسة المزاد العلنى الرسمية المعلنة بأجهزة الراديو والتلفاز والتى حددت ثمن الأرض بمليون جنيه ".

استكملت بأسى أجهله: " لم تكن هناك مشكلة بالماضى سواك ، الآن أصبح كل شيء سهلاً ميسورًا ، لو كنا نعرف ذلك ، لو كنا نعلم ، لطلبنا من صافى والمواطن الذى تسلم العقد مبالغ مضاعفة ".

كادت تبكى وهى تقول: "أراضى التكية التى تملكها الدولة كثيرة ، فى المرات القادمة ، سأفوض عنك وأضاعف المبلغ عشر مرات، فليس أحسن منا من يأخذ الملايين رغم أنه فى النهاية لا يقوم إلا بتوقيع مماثل لتوقيعنا ، ليمهر به الأوراق ويوثقها لتأكيد البيع والتنازل ".

قلت لنفسى: " لو كنت الآن خمسة لما حصلت على الظرف ، اليوم يجب أن أكون سعيدًا " ، عدت مسرعًا للمنزل ، ناولت زوجتى الظرف كاملاً ، كادت الزغرودة تنطلق من عينيها وفمها ، اتصلت بالتليفون بـ" جزرة " ليأخذ ماله ، نادت على الجيران ليأخذوا ثمن النور والصرف المشترك ، نزلت مسرعة لتسدد للبقال والفكهانى والجزار والفوال ، المهم فى نهاية اليوم لم يتبق لنا حتى ورقة بعشرة نستكمل بها حياتنا .

تسرسب الكلام من فمى لـ" مرزوقة " بغرابة فقلت: " كان الأجدر أن تدخرى أى مبلغ لمصاريف الغد " ، قالت بثقة: " أنت عدت لعملك ولا يهم شىء آخر ، أنا أعرف أن الظروف المملوءة بالنقود سوف تعود ، لن يكلفك إحضارها سوى الذهاب لمكتبك ، والتوقيع على العقود والأوراق لتعود بالخير الوفير الذى سيحول حياتنا إلى جنة ".

استعادت المرأة حيويتها بعد إعطاءها الجميع حقوقهم وزيادة ، وقالت بحب: " نام انت دلوقتي بسريرك ياسبعي.

قمت من على السجادة وأنا مستغرب وجه المرأة التي استطردت قائلة : " كنت قبل مرضك بقليل ترفض النوم على الأسرة ، لم يدخل النوم لعينك إلا وأنت ملقى على السجادة ، لكنك الآن بعد شفائك ، يجب أن تتعود النوم كل ليلة على قطن المراتب " .

دخلت صامتًا الحجرة وتمددت على السرير ، فأحسست بأننى قبطان سفينة متجهة إلى المجهول ، حاولت الدخول في النوم العميق متجاوزًا " مرسى" ، و" خمسة" ، والزوجة والأب والأم ، وكل الدائنين ، وزملاء العمل ، متذكرًا فقط حكمة الدكتور " فهيم" عن نعمة النسيان .

(٥)

لـم أتعـود النـوم علـى مراتـب السـرير منذ فتـرة طويلـة طويلـة ، مـع ذلـك أحسـها تحـت ضـلوعى كأوعيـة جافـة مملوءة بالشـوك ، أحـاول مرارًا البحـث عن سبب واحد يمنـع دخـول النـوم لجفونى ، فلا أجد .

دهشت من أحاسيسى الغريبة التى ذكرتنـى بـألواح الخشـب التـى نمـت عليها كثيرًا بأماكن لا أتذكرها الآن ، فقلت بأسـى: " البيـوت التـى تمتلـئ بالأسـرة والحجـرات بالـدنيا الواسـعة ، وينـام الملايين فيها علـى مراتب متنوعة ، ويحسون بالراحـة ، تختلف عن سريرى ، كأن المنجد الذى دك قطنها يكرهنى ، أحس بالمراتب تبادلنى مشاعر شريرة .

قلت لنفسـى: " النـوم علـى الأرض متعـة لا يعرفهـا أحـد " ، أحسـت "مرزوقـة" بمشـاعرى الجديدة ، دخلت الحجرة بعد ارتداءها قميصًا فضيًا يظهر جسدها عاريًا ، اقتربت منـى تتحسس أعضائى ، لكن الشوك ينغرس داخل ظهرى كلما تلمست المسكينة جسدى ، أحس كأننى غارق بدمائى ، قالت بأسى بعد أن فشلت فى جلبى للسعادة بين أحضانها: " انزل شوية للسوق ، وزور أمك وأبوك ".

أعطتنـى مائـة جنيـه ، وقالـت: " اشـترى فاكهـة أو هديـة حلـوة لـيهم ، واطلـب مـنهم أن يدعوا لنا بالستر "، صمتت ببراهة واستكملت: " أقولك ، روح الجامع شوية ، صلى يا خويا وسط الناس وادعى ربنا يخفف عنك " .

لبسـتُ ملابسـى ، وترجلـت درجـات السـلم ، الجيـران يفتحـون أبـواب شـققهم ويحـدثوننى ، ويشكروننى ، وهم يتفرجون على التلفاز ، ويأكلون الطعام وسط أبنائهم .

شـىء رائـع أن تعـيش بشـقة يحيطـك كـل هـؤلاء النـاس الـذين يسـتمتعون بالحيـاة دون تساؤلات غبية كالتى تراودنى أينما سرت .

لا أعرف كيف خرجت الكلمات التى **بادلتهم** التحية والشكر على دفعى الديون المتأخرة ، لكنهم ذكرونى بمكر وسط حديثهم الرائع بالديون الجديدة آملين بنجاحى فى سدادها .

رأيت عيون امرأة حزينة من داخل شقتها ترمق روحى ، أحسها تقول بصمت لعينى: "استهلاكنا لا ينتهى يا ضنايا ، فما دمت حيًا يجب أن تدفع ، العيشة نار ، يجب أن تسدد بدأب وانتظام مصاريف استهلاك المياه والكهرباء والصرف والتليفون وأجرة البواب ، وفواتير المطعم والبقال والمكوجى والفكهانى والقهوجى والجزار " ، نظرت المرأة إلى شاشة التلفاز كأنها لم ترنى .

وجه امرأة أخرى يبادلنى الأحاسيس الغريبة من خلف حجرة شبه مظلمة ، تنظر بعيون متفتحة بقميصها الخفيف الذى يظهر خبايا جسدها كأنها تقول: " هذا هو القانون ، ثمن حياتك ومرورك وسط الأحياء ، الدفع بأوراق البنكنوت الصفراء المرسوم على أطرافها علامة كرقم يدل على قيمتك ، دائمًا يجب أن تدفع وإلا جرسوا بكرامتك الطين ؛ إذ لا يجوز فى الحى الذى تحيا بقلبه وسط الجيران والأهل وزملاء العمل ، أن تعيش عالة ، وإلا تحملت وحدك القهر " .

خرجتُ للشارع وحيدًا غير مدرك ما يدور حولى ، بكل سعادة يستقبلنى الفكهانى من بعيد بترحاب وود ظاهرين ، كأنه نسى سبه لأخى وإهانتى يوم انفجار عقلى ، أرفع يدى وأمرُّ شاكرًا كرمه .

يشد القهوجى الكرسى على المقهى لأجلس وهو يردد بلطف ": اتفضل يا أستاذ مرسى ، شرفنا بكرمك " ، أبتعد عن الكرسى الذى شده بأدب ، وأسير متخطيًا الحواجز التى تلف حول أحاسيسى المتفجرة بالتناقض ، تمر عربة البوليس بجوارى لتذكرنى بالأيام السوداء التى فقدت فيها " مرسى " القديم .

صرخَتِ السيارة بجوارى فانقبضت روحى ، زحزحت قدمى بصعوبة حتى التصقت بالحائط ، لتمر بعيدة عنى .

قابلنى ساعى الهيئة الحكومية وزميلى فى العمل مرحبًا بعودتى للشارع ، قائلاً بأدب وبشكل مفاجئ: " أعملُ بعد الظهر كسمسار لبيع وتأجير الشقق والبيوت والأراضى " .

حلف ميت طلاق لأشرب حاجة ساقعة ، انبرى صبية كثيرون تابعون له ، ويحيطون بجسدى فاتحين زجاجات كولا باردة ، سلمو إحداها لأطراف أصابعى فى حياء ، تجرعتها كزيت الخروج وهربت بعيدًا .

مر رئيسى "صافى " من أمامى بسيارته ، ونادى علىَّ بأدب: " مساء الخير يا أستاذ مرسى ، أى خدمة " ، شكرته لأستمر فى سيرى العكسى ، لا أعرف ، لماذا طأطأت رأسى وخفضتها حين جاءت عينى فى عين هذا الـ صافى؟ "

الضجيج يملأ الشوارع ، أصوات مرعبة تخرج من قلب المحلات والمقاهى ، وتظهر من فتحات أبوابها الضيقة شاشات تليفزيونات وكمبيوترات مضيئة ، ووجوه غريبة لرجال ونساء ، تنطق حروف الكلمات برقة وفصاحة ونبرة رائعة، أسمعها بتركيز ، أيقنت من عيونهم الملونة أنهم يعلمون الناس طرق الدكتور الباهرة فى النسيان ، جاءنى إحساس بأنى الوحيد الذى لم يفهم خبايا القانون البسيط الذى أبدعه عقل عالم معالج طبيب يُدْعى دكتور " فهيم" .

دهس توكتوك قدمى ، يقوده بغضب صبى أرعن ، سبنى علنًا وسط الشارع ، يضع على إحدى عينيه بمهارة قطنة بيضاء دائرية غريبة دون لاصق ، كأنه يسترق النظر من العميان الذين يخترق جموعهم ولا يتأثرون بسيره الغريب بين أقدامهم الزاحفة نحو مستقبل غامض .

الأغانى المنتشرة من حولى والمنطلقة بكل الأركان ، تعجزنى عن تذكر ملامح شخصيتى الجديدة .

وحيدًا جلست بنهاية الشارع على مقهى بعيد ، خائف من نفسى دون تفسير منطقى أو مبرر واضح .

لبستنى نفس الشخصية التى قررت فى يوم غير معلوم خلعها من أعماقى ، اقتربت على غير هدى من ملامح مواطن آخر يعيش بداخلى ويتجهز للانفجار ، أطلقوا عليه يوماً ما رقمًا كدلالة على اعتياده الدوران فى الساقية الدوارة حتى النهاية .

رغم كلمات الدكتور التى حذرتنى بعدم العودة لهذه الشخصية ، لكننى تجاهلت كلماته ، خاصة أننى على مقهى بعيد ، ويستحيل أن يتعرف الناس على ما يدور بخلدى .

تذكرت سعيدًا أيام حجز الشرطة ، ومصحة التأهيل ، ومشاجرات الجيران ، والعيون الشريرة لأخى وزوجته وهما يطالباننى بتسديد ديونهما بسبب توقيعى على شيكات المحل الشرك كضامن .

تذكرت رائحة بصاق أفواه الفكهانى والبقال وصاحب البيت والجزار ، وهم يعايروننى بفقرى ويهينون كرامتى لأدفع ، تذكرت عينى محصل الكهرباء ، وجيرانى الذين دأبوا على مقابلتى كل يوم ليبلغونى بفخر أنهم أفضل منى .

يوم هروبى من المصلحة عاد الجنون كطائر أمام عينى ، لرفضى تزييل العقود بتوقيعى لمخالفتها للعقل والمنطق ، سمعت صراخ زملائى وعيونهم المندهشة من شخص قرر فجأة غلق الطريق الوحيد المؤدى إلى النجاة ، دون أن يحدد طريقًا آخر للعبور وتفادى غرقهم ، فاستحق اللعنة والانضمام لقافلة النوع البشرى الذين نناديهم كأرقام لحماية وجودهم .

صرخت فى صمت قائلاً : " تذكر ، تذكر ، تذكر ، تذكر ، فلن يمكنك أن تعدد المآسى التى مررت بها ، تذكر فلن يمنحوك اسمك مرة أخرى إلا بالغرق فى ديوان المصلحة وضجيج الأسواق ".

"قهر"

(١)

أضحى الطريق من المقهى البعيد للمنزل بمثابة تراجع ونسيان واضحين لشخصيتى الجديدة ، قلت لنفسى: " أنا خمسة المرسى، يجب أن ألتزم بكلمات الدكتور فهيم وإلا عدت للسلخانة مرة أخرى ".

لا يهم أننى أعيش بدون أحاسيس ، أو ذاكرة ، أو أحلام ، المهم أن أغرق بالتفاصيل وأتغاضى عن المصير ، لا يهم اسم المحطة التى سأصل إليها أو شكلها أو مكانها ، المهم أن أظل مستمرًا فى ركوب القطار كى أضمن سلامة الوصول للمحطة الأخيرة ناجيًا .

هذا هو القانون الجديد الذى يجب علىَّ الالتزام به وإلا حولونى مرة أخرى لرقم كئيب معذب.

عدت للشقة متجاهلاً نظرات الجميع وتحياتهم التى بادلتها بأدب وحياد لدرجة أذهلت القهوجى والفكهانى وجيرانى ، فلم يتمكنوا من الدخول لروحى ومعرفة مع من يتحدثون .

استقبلتنى " مرزوقة " باكية بسبب تأخرى لإنصاص الليالى وتركها وحيدة تداوى ابنها المريض ، حاولت أن أشرح لها ضرورة مكوثى كل يوم وحدى عدة ساعات حتى أستعيد نصائح الدكتور وأتمكن من مسايرة الكائنات ، والتعايش بألفة كواحد منهم .

فضحكت فجأة وقالت: " ده أنت زى الفحل ، والأسد الجاسر ، مرض إيه وإحساس إيه بلا وجع قلب " .

غيَّرت ملابسها ودخلت المطبخ ، أحضرت أطباقًا متنوعة من الطبيخ ، والعيش المحمص ، وأنواعًا مختلفة من المخللات والسلطات والفواكه ، جلست بجوارى تحثنى على تذوق طعامها ، أصرت على تشمم رائحتها بالأطباق كى أتمكن من معاودة عشقها على مرتبة السرير التى تأبى ضلوعى أن ترتاح عليها .

ملأت بطني بكل ما لذ وطاب ، فوجئت بها تجرني للحجرة ، وتمزق ملابسي وتتحول لوحش أنثوى مفترس ، وضعت قضيبى فى فمها ، وصرخت كأنثى الأسد ، تحسستُ نفسى بداخلها كفأر ، ابتلعتنى وألقتنى على مرتبة السرير بقوة غريبة ، أدخلتْ فرجها بقضيبى المنتصب ، لفت حولى بقدميها ، عجنت جسدى بشعرها وصدرها ، وأدخلته بشهوة بين فخذيها ونهديها ، وأدت محاولتها الرائعة إلى امتطائى للمرور بأعماقى مسترجعًا شخصياتى المتعددة .

انفجر عقلى ، فاستعدت بعض المشاهد القديمة أمام منزلنا القديم وأبى يلقننى الدرس الأول لضرب أبناء الجيران وسبهم للفخر بقوتى ، عادت نظرات الغيظ التى تملأ عينيه حين علم أن عاطف ابن جارنا ضربنى فى الشارع وشج أنفى وأنا أردد شاكيًا بوجهى الخائف المستسلم طريقته الشريرة فى ضم ياقة قميصى على رقبتى ليخنقنى ، كان أبى يتمنى أن أقتله ، ولما تغاضيت عن رد الإهانة " لعاطف" ونسيت خوفى ، قُهر بحسرتى .

انفجرت بقلبها ، فعصتُ جسدها بذهول أفزعها ، شاهدت عيونها المستغيثة ، فانطلقتُ متقمصًا شخصية الرقم السحرى الذى أعطاه لى الدكتور ، وعدت ممتلئًا حنانًا متذكراً قضيب الصبى " شبارة" بتخشيبة القسم .

هدأتُ تمامًا بعدما أحسست بسلك الكهرباء العارى يلامس خصيتى وتحت أذنى بحجرة الثلاجة بمصحة "فهيم" .

أغيب عن الوعى غير مدرك لون السقف الباهت الذى يتفرج علينا ونحن نعافر أرواحنا بأجسادنا لنخرج سمومها عبر تأوهات مفزعة تساعدنا على هروب الألم .

تقوم " مرزوقة " من تحتى ، وتدخل الحمام ، وتعود باكية لفشلى فى المرة الثانية من الانتصاب ، قائلة بحسرة حقيقية كحكيم يلقن تلاميذه درسه الأخير : " حينما أخذوك لمستشفى المجانين تصورت أنك الوحيد العاقل الذى رأيته بحياتى ، بعدما رفضت الاستمرار فى دفع الثمن ، تصورت أنك الشخص الحقيقى الذى عرفته طول عمرى ، لكن بعد عودتك مرة أخرى ونبوغك فى تدفئة فرجى ، أيقنت أنك زوجى الحبيب الذى تعلم الدرس ، وقرر العيش مسالمًا لتربية رزق داخل شقتى ".

استكملتْ بعد أن غيرت ملامح وجهها وقالت بحيرة حقيقية:" لكنى عاجزة حتى الآن عن فهم سبب تحولك المفاجئ يوم صرخت بوجهى رافضًا العيش معى تحت سقف واحد ، لم تهب قاعات المحاكم التى أصدرت الأحكام بإدانتك ، لم تهتم بالإهانات التى سببها لك أخى جزرة وأختى طماطم ، لم يكن يهمك شيء ، الآن بعد عودتك وصمتك الطويل ، عدت لا أفهم طريقتك الصامتة ، واغتصابى كل ليلة بفُجر كأنك وحش عديم الإحساس ".

أخذتها بحضنى وبكيت ، أحسست لأول مرة بمشاعرها الصادقة ، كدت أقول لها الحقيقة ، لكنى عجزت ، نزلت على السجادة ، وطلبت منها أن تسمح لى بالنوم على الأرض ، وافقت مذعنة تحت إلحاحى ورغبتى فى العودة لمكانى المفضل .

تمددتُ بجسدى فاردًا ضلوعى ودخلت بالنوم العميق ، متناسيًا الشوارع والحجرات والمصحة والأسواق والمصلحة وبائعى السوق ، فعاد لأحلامى محصل الكهرباء وهو يدخل من باب الشقة ، دون أن ينظر إلى عداد الكهرباء ، وقف أمامى بدهشة ، تخطانى وذهب لـ " مرزوقة " فوق السرير ، خلع ملابسه سعيدًا وعاشرها أمام عينى ، الغريب أننى كنت أضحك مستمتعًا بوضعهما المدهش الذى أخفى وجوههما ، لم تظهر إلا أعضاؤهما التناسلية ، حين شاهدنى المحصل نائمًا على السجادة بجوار السرير مفتوح العينين ، فر هاربًا ، تاركًا امرأة مسالمة وحيدة لم تتمن بحياتها أكثر من العيش في سلام .

الشيء الغريب أن صاحب المنزل دخل صالة الشقة بعباءته الثقيلة والعرق ينز من جبينه قائلاً: " عندك أكل يا مرسى " ، بكى أمامى ذاكرًا عجزه عن معاشرة زوجته ، طردته قائلاً: " ليس لك عندى أكثر من الإيجار يا كلب " ، نظر إلى "مرزوقة " بود وهى عارية على كنبة الصالة ، بادلته النظرات الحانية ، ثم قامت فى دلال ودخلتْ بصحبته إلى الحجرة ليمتطيها على السرير.

رأيت " شبارة " بالأمواس التى تملأ فمه أمام شقتى قائلاً بحب:" ميهمش حاجة يا عم مرسى" ، ناولنى مطواة وهو يشير إلى الحوائط والأبواب المغلقة: " حطها بجنبك ، الوقت مش مضمون "، أخذنى من يدى ودخل بى حجرات المصحة كأننا طيور جارحة ، قائلاً:" افتح مطوتك وراقبنى " .

حين شاهد الدكتور "فهيم " فلق رأسه لنصفين ، وقال بحرارة دخلت أعماقى: " اقتل الممرضين ، لا تخش أحدًا " ، استمتعت وأنا أكتفهم بالكراسى بحجرة الثلاجة ، وأضع السلك الكهربائى العارى على جبينهم ، يضحك " شبارة" من جبروتى وشهوتى فى الانتقام ، فجأة يصرخ لأعفى عنهم متوسلاً الرحمة ، نظرت بشرٍّ إلى قلبه الطيب ، وأدخلت مطواتى داخل أحشائه ، منظر عينيه المضمومتين بحزن من الألم يسعدنى ، عاودت طعنه بالمطواة بقضيبه وخصيته وردفيه ، حين لم يبق إلا الدم ، شاهدتهم جميعًا يصرخون طالبين الرحمة ونسيان الماضى .

(٢)

صحوت من نومى وارتديت ملابسى فى صمت وخرجت دون أن أنبس بكلمة واحدة متجهًا لعملى ، شاهدت نفسى أقف وحيدًا أمام المصلحة ، وحين لم أجد أحدًا بالشارع ، سألت حارس البوابة عن الموظفين ، فقال مستغربًا ، إنه يوم الأجازة .

الغريب أننى شاهدت " ثناء " و " صافى" و" سيد " الساعى يقفون مثلى مذهولين ، ويسألون بعض المارة عن الوقت ، التفت ناحيتهم ، فقالوا بصوت جماعى: " لم نكن نتصور أن تأتى للرحلة أبدًا " ، تذكرت سريعًا أننا فى يوم الأجازة ، وقرار نقابة الموظفين يوم الأمس باستغلاله لقضاء ساعات وسط أشجار مدينة الزهور ، علقوا على بوابة المصلحة الرئيسية منظر مياه البحر الذى لم تره عينى " .

حين دقت التاسعة ولم يأت باص الرحلة ، قررنا العودة منكسرين لمنازلنا ، لكن " ثناء" قالت على حين غرة: " تعالوا نفطر مع بعض عند " المجنون" .

لم يعترض أحد ، سرنا كأغراب حتى وصلنا إلى أول الشارع ، دخلنا المطعم الممتلئ بالجائعين ، استقبلنا النادل مبتهجًا واضعًا على الترابيزة التى نجلس حولها أطباقًا صغيرة ممتلئة بالفول والبطاطس والباذنجان وأعواد الفجل والجرجير ، تذوقت الخبز باعتباره أشهى الأطعمة .

لم يحس أحد بجمعنا الغريب ، رئيسنا بالعمل الذى ركم بدأب ثروته يجلس وسطنا صامتًا ، والمرأة التى تدَّعى صداقتى وتلازمنى بمكتبى ، تتحدث كثيرًا لتضيع الوقت القاتل فى الفراغ ، شعرت بمحاولتها الدائمة بالهروب من جحيم أسرتها التى تطالبها بالعجن والخبز والطبخ والغسيل كل يوم دون رحمة ، كأنها كائن مختلف يأبى الاستمتاع خارج الحظيرة.

الساعى الوسيط بين البشر فى السوق والعمل والشارع يجلس مندهشًا وسطنا ، كأنه تائه فى عالم غريب .

حدثونى كأخ بود ، سألونى عن ابنى وزوجتى ، كانوا مبتهجين كأطفال ، وهم يتحدثون عن أسرهم وأهاليهم وتفاصيل حياتهم ، تألفنا كإخوة رغم الوقت القليل .

قالت " ثناء " صديقتى ضاحكة بعد أن انتهينا من الإفطار ودفعت ثمنه تحت إصرار وفشل ثلاثة رجال بإظهار قوتهم: " سأدفع ثمن الإفطار ، والأستاذ صافى يدفع ثمن الشاى ".

أخذنا "سيد" الساعى لأقرب مقهى ، جلسنا بود متدثرين بوجوه وأحاسيس جديدة على شخصياتنا المتنوعة ، تساءل " صافى" عن الحكمة فى إلغاء الرحلة ، وأجاب سريعًا عن نفسه ببلاهة: " يمكن عشان نفطر مع بعض ونتحدث كإخوة " .

قال بأسى بعد استغرابه من حكمة الرب:" إنه يعيش حياة غريبة ، يخرج كل يوم فى الصباح ، ويظل يعمل طوال النهار والليل ليكفى أسرته التى دأبت على صرف آلاف الجنيهات دون مغبة المستقبل المجهول ".

حكى عن أولاده الفاسدين الذين لا يعرفون قيمة القرش ، كرر حديثه حول مساعدته لأهله الذين يحقدون عليه .

بكت " ثناء صديقتى " قائلة: " العيشة مرة صعبة ومحدش عجبه حاله ، منذ الصباح أظل أعمل كأننى بطاحونة لا تقف إلا ساعة نومى غريبة على السرير بجوار رجل يبادلنى نفس الأحاسيس " .

نظر" صافى "و"سيد" إلى صدرها وعيونى كأنهما يحقدون على ما بيننا .

انبرى الساعى مبحلقًا للفضاء ، قائلاً بود: " الدنيا حالها غريب ، أواصل عملى بعد المصلحة بمكتب السمسرة ، مصاريف العيال زادت ، كأنه مكتوب علينا أن نظل نعمل ليلاً ونهارًا حتى نموت " ، حين سألونى عن حياتي قلت: " مستورة ".

ضحكوا وبكوا وغالطوا النادل وابتهجوا ، وتذكروا آخر عملية اشتركنا فى تنفيذها .

قرر " صافى" أن يرفع الثمن الذى نتقاضاه لأن المعيشة زادت ، شتموا أولادهم وسبوا زوجاتهم ، وانتشوا لخروجهم ساعاتٍ عن المألوف .

فى هذا اليوم ، وبعد توديع بعضنا اتصلت صديقتى " ثناء" بتليفونى لأقابلها ، أخذتنى لمقهى واسع يطل على نهر كبير ، جلسنا ساعاتٍ تتحدث عن آلامها ، وتعب العيال والزوج المشغول .

أخذتنى لشقة أمها التى ماتت وتركتها وحيدة ، خلعت ملابسها وارتدت ملابس فتاة صغيرة قائلة: " اشترتْها فى العيد الكبير قبل وفاتها " .

ذكَّرتنى بمعاشرتى فى الليالى والنهارات الطويلة ، استعادت المرة الأولى التى قررت مرافقتى ، تذكرت نفسها وهى تتمايل أمامى معربة عن براءتها ، بكت واحتضنتنى قائلة: " كنت أتمنى أن أحس بحضن رجل حقيقى " .

حكت عن كل الرجال والنساء الذين رافقتهم ليساعدوها على الاستمرار فى الدائرة التى تسمى الحياة .

قالت:" الشىء الغريب أننى فى كل مرة أعاشرك أستعيد براءتى ".

بكت فجأة قائلة بأسى حقيقى:" سأظل وحيدة بعد مغادرتك "، نزلت الدموع من عيونها ، كأنها تغتسل من ذنوبها ، رغم ذلك تعاود معاشرتى لأننى كما تقول الأمل الوحيد للاستمرار فى الطبخ والعجن والغسيل والتنظيف لأسرتها التى لا تحس بحرق روحها.

حكت ببساطة عن الجميع ، تخيلتها تعرف أخى وزوجته و"مرزوقة" وجيرانى وزوجاتهم وأصحاب المحلات بالسوق ، وكل الذين عرفناهم .

أدهشتنى بتفسيرها لعلاقتنا وعلاقات الرجال والنساء الذين يعاشرون الآخرين والأخريات لكى يستمروا وسط دائرة الحياة بذواتهم المعروفة بأعماقهم ، قالت كناضجة: " فى هذه اللحظات فقط يمكنهم العودة لأنفسهم ".

سألت نفسى بغرابة بعد ساعات من حديثها: " هل أنامرسى الذى يرغب فى نسيان شخصية خمسة؟ أم الآخر الذى يرغب فى التآلف والعيش كزوج وأخ وأب وابن وصديق وزميل عمل مخلص؟ "

جهزت " ثناء" العشاء وهى تناديني برفيق روحها ، قالت فجأة بغرابة: " لم أعد أفرق بينك وبين زوجى وأولادى " ، سحبتنى على السرير ، عاشرتنى كصبية صغيرة بكر ، صرخت معددة أسماء رجال عديدين كأنهم يمتطونها جماعة.

حين انتهت منى ، دخلت الحمام ، وعادت " ثناء" التى أعرفها كصديقتى وزميلة العمل ، خرجنا منتشيين من شقة أمها ، وافترقنا عند أول محطة ليعود كل منا لمنزله ويستكمل دوره سعيدًا .

ذهبت لمنزلى وفتحت باب الشقة ، من حسن حظى أن "مرزوقة" كانت نائمة ، مددت جسدى على السجادة ونمت دون أحلام أو ضجيج ، فى الصباح ارتديت ملابسى وغادرت الشقة فى صمت متجهًا لعملى .

شاهدت وجوه زملائى غريبة، عادوا لأداء أدوارهم ببراعة ، وجوه أخرى ونبرات أصوات جديدة خلاف التى تحسستها يوم الأمس ، انبروا من جديد لممارسة نشاطهم المكرر بكفاءة وهمة وسعادة بالغة .

دار الساعى حول نفسه مختالاً ليملأ حجرات المصلحة بصوته الأجش ، يرفع صينية الشاى ويسلم على الموظفين والزوار ، ويردد بلسانه ألفاظًا رائعة تدل على الترحاب الفائق ، وخدماته المجانية لتسهيل العمل والحب بين البشر .

أخرجت " ثناء " صديقتى مرآة زجاجية صغيرة مدورة من حقيبتها ، ثبتتها أمامها على المكتب ، ظلت طوال النهار تعيد تسريحة شعرها ، وتخفى ببراءة شنطة الخضار تحت المكتب .

تحدثت طوال النهار بالتليفون ، كأن الله لم يخلقها إلا للكلام والابتسام المحايد .

دخل " صافى " بوجهه الصبوح ، سلم على الجميع والقى تحيات الصباح والظهر كملاك يبحث عن بذور السعادة ، وزعها بشبق على الموظفين بأظرفه السحرية ، كان نابغة فى التعامل مع الجمهور ، وجلب الأوراق الملونة السرية من جيوبهم ، ليسلمنا حقوقنا كى نتمكن من تسديد ديوننا ، والاستمرار فى القيام بأدوارنا الرائعة فى البحث عن مكان وسط الدائرة.

رغم ضجيج المصلحة لبستنى فجأة شخصية " خمسة" ، فتذكرت أسوار المصحة وجلسات الكهرباء ، وحجرة الثلاجة ، لكننى لم أتمكن من استعادة وجه الدكتور المعالج وكلماته ، حين اقترب النهار من نهايته ، أحضر " صافى" كومة من الأوراق وطلب منى توقيعها ، قلت له بصوت حقيقى: " اتركها اليوم لبحثها وسوف أسلمها غدًا لمكتبك " ، وضع يده فى جيبه قائلاً: " مرسى يا خويا ، الظرف مليان ، والمعلوم زاد ، وقَّع لأسلمك الأمانة " ، لم أفهم قصده ، فعدت مكررًا ملاحظاتى بضرورة دراستى للأوراق قبل التوقيع .

همس بأذنى قائلاً: " نصيبك المرة دى عشرين ألفًا ، وقَّعْ وخلصنا يا أخى " ، صرخت وخرجت عن شعورى ، وقلت له: " اخرج بره "، نظر إلىَّ بعينين صافيتين مذهولتين ، وخرج من الباب بظهره مدهوشًا من ضياع عقلى مرة اخري.

بعد دقائق معدودة دخل موظف الشئون القانونية ليسلمنى إنذارًا بالحضور غدًا للتحقيق ، بتهمة معاودة جنونى وخطرى على سير العمل ، نظرت إلى الورقة التى تركها على مكتبى ، فتأكدت من ختم المصلحة ، وتوقيع الرئيس .

الغريب أن " سيد" الساعى دخل الحجرة واحتضننى ، ورقص كالبهلوان حولى ، ثم بكى وضحك وهدد ، وطلب منى التوقيع فى صمت وإلا فسأتحمل وحدى نتائج الرفض .

لوح فى خسة بالبلطجية الذين ضمهم أخيرًا لمكتبه كمساعدين لجلب الزبائن ، بعد تحول الشارع والبيوت والمحلات إلى أسواق تجتاح براءتنا وتحتاج وسطاء أمثال سيد الساعى ليقربوا بيننا ويدمجوا خلافاتنا فى منتج واحد اسمه النسيان .

وسط تهديده أعلنَ انضمام شبارة لصبيانه ، حولتْ نبرة صوته المتشفية جسدى إلى بئر نيران بعيدة فى أعماقى ، كان يتوقع هزيمتى بتذكيرى بقوة صبى هتك عرضى ، لكنى باغتُّه لأمسك رقبته كى أقتله خنقًا ، لولا تدخل زملاء العمل الذين تجمعوا حولى وتوددوا لأتركه ، لحولته إلى كومة ركام تصلح فقط للحرق ، أحاطونى بريبة حتى خرجت من باب المصلحة سليمًا ، اندهشوا من عيونى وصمتى ورغبتى العارمة فى الخروج .

(٣)

أصبحت تائهًا بين الدروب الكثيرة التى تمتلئ بها أعماقى ، فتارة أتقمص شخصية " خمسة" ، وتارة أخرى أعيش " كمرسى" ، الآن لم أعد أتذكر نصائح الدكتور المعالج .

تتداخل شخصياتى المتنوعة ، ولم أعد أتحكم بردة فعلى ، مع أننى متيقن تمامًا بدور كل شخصية ، وما يجب أن تفعله ، فمرارًا دربت نفسى على أن شخصية " خمسة" هى الشخصية العاقلة التى يجب أن أتآلف فيها مع الناس لأبادلهم مشاعر الصداقة والأخوة والأبوة.

لكن شخصية " مرسى" تأتينى كملاك وأنا وحيد أتأمل الناس وحركة الحياة من حولى ، فأعود كشخص عتيق فى القدم لأتذكر طفولتى وبراءتى وسط جيرانى وأسرتى .

المشهد الأخير بالمصلحة أكد هزيمتى فى التوفيق بين شخصياتى المتنوعة ، منيت بالخيبة فى النهاية لفشلى فى فهم مغزى النسيان ، فرغم حرصى على ارتداء شخصية " مرسى" الجديد ومسايرتى للقوانين السائدة بين زملائى ، لكنَّ وجوهًا متنوعة بدأت تظهر فى الأفق لتضللنى .

ظهر أحداها اليوم بالمصلحة ودون سبب دفعنى لتقمص شخصية " خمسة" ، وأصررت بغباء على عدم التوقيع على أوراق "صافى " ، مما أدخلنى مرة أخرى فى دوامة التحقيقات والاستبعاد ، وعدم تسلم أظرف النقود التى ستُوقِف الديانة عن قتلى .

خرجت مستاءً من العمل ، مقررًا الذهاب لمنزل والدى وأمى ، استقبلانى بحزن وبكاء غير مفهومين ، أتحسس بشفقة آلامهما الخارجة من عظامهما بصبر رهيب ، تحولت حياتهما بعد مرضى إلى زيارات دائمة للمستشفيات والأطباء ، أمراض كثيرة فتكت بقوة أبى وأعجزته تقريبًا عن النطق .

جلست أمى الحزينة على كرسى متحرك ، نادت علىَّ لأناولها كوب ماء ، أخذتنى بحضنها بعد إحساسها بألمى ، فجأة دخلنا نحن الثلاثة بنوبة بكاء جماعية ، لكن الغريب أن أبى حين رأى بوجهى دواعى الشكوى قال صامتًا: " احمد ربنا انك مازلت حي " .

بينما انبرت أمى بنصائحها الغريبة لتدلل على لطف الخالق بحالنا ، طالبتنى بالمواظبة على الصلاة ، فهى علاج كل محتاج ، حاولت أن أشرح لهما الأدوار المتنوعة التى يجب القيام بها رغم شخصيتى الواحدة ، لكن المرض والآلام النازفة من عظامهما وأجسامهما ، منعانى من الحديث .

تقمصتنى شخصية " مرسى" القديم ، فتذكرته وهو يجرى ويلعب ويضحك بين أطفال الجيران وسط الشارع دون خوف ، اليوم يتأمل الأسواق بغرابة ويعيش وسط أفراد أسرته ، ويصمت فاقدًا الإرادة والتحرك ، فى محاولة يائسة أخيرة لتخفيف الأذى والألم اللذين يمزقان عظام أبى وأمى قلت: " الحمد لله" .

ساعدتهم على إعداد الطعام وطى الغسيل وتنظيف الشقة واستأذنتهما فى استسلام مريب ، ودون أن أقرر طريقى ، ذهبت لأخى بالسوق ، لعل رؤيته تدفئ روحى .

حين شاهدنى ، ظهر الشر بعينه فجأة ، قائلاً فى استقبالى: " الشهر عدى يا مرسى أفندى ، ولم تحضر المبلغ المتفق عليه " ، كدت أبكى لأن آخر الشهر لن يأتى أبدًا ، بعد تحويلى للشئون القانونية ، قلت له بغرابة لأطمئنه: " انتظر شوية يا خويا ، الدنيا مطرتش ، وبعدين حالك ماشى ، وصرف نفسك على ما تفرج " .

كانت شخصية " مرسى "الجديدة هى التى تتكلم ، تحاورت بلغة السوق ، فانبهر أخى لتجاوزى أحزانى ، فرد بحب:" ومالوا يا خويا ".

تقمصَ شخصية أخرى بعد أن ضيق فتحة عينه ، وقطَّب جبينه وقال بهدوء: " بس التجار ميعرفوش الانتظار ، الشيكات هتروح المحكمة ، والإيصالات أنت موقع عليها كضامن ، لن يرحمونا ، ومش بعيد يحبسونا " .

رددت باستياء: " طيب وأنا مالى ومال التجار والأجهزة " ، فقال ببراءة بنفس الوجه: " أنت نسيت أنك شريكى فى المكسب والخسارة ، استعاد رصانة شخصيته الجديدة قائلاً: " حين فتحنا الشركة ، قلت لك إن التجار يحتاجون ضامنًا من العاملين بدواوين الدولة ، وذهبت معى ووقعت باعتبارك شريكًا فى المحل " .

قلت مدهوشًا:" يعنى أنا شريكك " ، رد مبتسمًا: " طبعًا يا خويا ، لو عايز تراجع الحسابات ؛ الدفاتر موجودة ، الشركة كل سنة بتخسر مائة ألف جنيه ، وأنت مدين بمائتى ألف ، إذا لم تدفع فسوف يغلقون الشركة ، وتتم محاكمتك ".

ضحكت كرقم " خمسة " فاتحًا فمى كدائرة كبيرة ، كادت تبتلع جسده وقلت له: " أنت اتجننت ، أتتاجر باسمى ونقودى وضمانى ، وتطلب منى تسديد ثمن الأجهزة التى تقبض أرباحها وحدك " ، قال بغل لم أره قبل ذلك متقمصًا شخصية الأخ المتوحش: " المحكمة بينا يا مجنون ".

حين لم أبادله الانفعال ضحك مرة أخرى ، عائدًا لأعماقه مرتديًا وجهًا جديدًا ليقول بود: " أنا عارف أنك طالع من أزمة ، واحنا إخوات ، مش مهم آخر الشهر تسدد ، الشهر الجاى ابقى اعمل حسابى ، أنا عارف أن رزقك كتير ، يوم ما ربنا يكرمك بقرشين يا عم ابقى افتكرنى " .

احتضنني وبكى ، وطلب ليمونًا مثلجًا من القهوة لأشربه ، تركنى أجلس وحيدًا على الكرسى بعد أن انشغل بالحديث مع زبائنه الذين ملأوا المحل غير مكترثين بصوتنا المرتفع .

بعد مغادرتهم عاد مرحبًا مندهشًا بوجودى ، فجأة بكى مرة ثانية متقمصًا شخصية جديدة ليشتكى حاله وعلاقته الفاشلة بزوجته المجنونة التى تسئ معاملته ، ولا يستطيع أن يطلقها بسبب ابنته الجميلة .

قال بحزن حقيقى:" إذا تركت البيت فسوف تتشرد وتمارس الدعارة علنًا بالسوق ، ولن يتمكن أحد من إعادتها للطريق المستقيم ".

انطلق بعيدًا وسط الدائرة التى تسمى الحياة ، مرتديًا قناعًا جديدًا طيبًا ليحكى بصدق عن أحلامنا أيام المدرسة ومشاجرتنا بالمنزل حول الدُّمى التى كان يحضرها أبونا لنلعب بها كإخوة مشتركين فى كل شىء .

حكى ببهجة حقيقية عن أيام صباه وعشقه لفريق المدرسة الذى تأهل لدورى الجمهورية وأصبح أهم لاعبيه ، قال بأسى وهو يذكرنى بشخصياته الكثيرة المتنوعة: " أهى عيشة والسلام ، أقولك يا خويا ، سدد وقت ما أنت عايز" .

يدخل البشر أنفاقًا كثيرة ، ويسيرون مسافاتٍ رهيبة لا تنتهى ، يدخلون ظلامها بإرادتهم بحكم الميلاد ليعيشوا فيها طوال العمر المديد ، أنفاق تغلق وأنفاق تفتح وكأن أنفاق الدنيا لا تنتهى إلا بنفق النسيان الأخير ، قلت لنفسى: " ما المانع أن أنهى كل ذلك وأدخل هذا النفق بإرادتى وتنتهى الحكاية ؟ "

زجرنى طفل صغير بدراجته ، لأقع على الأرض وسط السوق ، انبرى الفكهانى والمكوجى والقهوجى باللحاق بجسدى المكوم كخرقة بالية بين حفر الشارع ، رفعوننى عن الأرض ووضعونى على كرسى خشبى بثلاث أرجل ، تتأرجح جثتى غير متوازنة ، فيسندنى الجزار صامتًا .

أنظر إلى وجوههم بدهشة ، يتوددون بحب لعينى الحائرتين ، يعودون بأكواب المياه والحاجة الساقعة غير عابئين بمحلاتهم المهجورة التى يمكن سرقتها وهم منشغلون برجل ارتمى فجأة على الأرض صامتًا ضعيفًا وسط السوق ، رغم المخاطرة ، ساعدوه بمروءة ليجلس على الكرسى ، عبثًا حاولت تذكرهم بأعماقى البعيدة.

أحس الجميع ذهولى ، فبكوا فى صمت وخنوع ، كأنهم يعرفونى ، قالوا كلامًا طيبًا ليدعموا ذاكرتى المطموسة، مسح الفكهانى دموعه قائلاً: " آه يا عم مرسى اللي حصل لكل ده ، يا سيدى محدش واخد منها حاجة ، ده أنت لو تشوف حالتى تعيط يا راجل ، الولية مطفحانى الحنظل ، والبلدية مبسبنيش يوم إلا بعد متحصل الإتاوة ، البلطجية يملأون الشوارع ، ويفرضون مبالغ شهرية لحمايتنا ، احمد ربنا وميهمكش حاجة يا أخى ، ده الواحد لو فكر فى كل حاجة مش هيعيش دقيقة واحدة " .

انبرى المكوجى ليستكمل الحكمة التى نزلت على قلوبهم ساعة مشاهدتهم انهيار مواطن يعرفونه ولا يتذكرهم ، طبطب علىّ قائلاً: " احنا أحسن من غيرنا كتير ، من شاف بلاوى الناس هانت عليه بلوته " .

حكى عن زوجاته الثلاث ، وأولاده ، وكيف يقدم لهم المن والسلوى ، قائلاً بأسى غريب على شخصيته الراهنة:" بحرمها على نفسى علشان خاطرهم ، دائمًا يطالبوننى بالمزيد ،

وينكرون جميلى ، لدرجة أننى أفكر فى الهرب ، لكن بقول لنفسى ، آهى كلها بلاد ربنا ، وشقى هنا هو شقى هناك " .

قال البقال مداعبًا الجميع: " الأستاذ مرسى بيعمل كل ده علشان منطالبهوش بالديون ".

حين ذكر لفظ الفلوس ، تغيرت ملامحهم وتحسسوا جيوبهم ، وحكُّوا أطراف أصابعهم فى بعضها ، وانتشرت التجاعيد تخترق وجوههم ، كأنهم يعيدون تركيب أقنعة جديدة ليوجهوا حساسيتى المفرطة .

قالوا بشكل جماعى: " يا عم مرسى الديون مقدور عليها ، هى عليك عليك ، بس لازم تفك شوية علشان تقدر تصيد الرزق وتسدد " .

فجأة طالبنى الفكهانى ضاحكًا بثمن الفاكهة التى يرسلها إلى منزلى كل ليلة ، استخرج البقال والمكوجى الدفاتر واستعرضا المبالغ المتراكمة علىَّ منذ هروبى للمصحة حتى الآن .

قالوا جميعًا بتداخل مبهم كأنهم يشكلون جملة واحدة رغم الأصوات المتنوعة: " احنا أهل ، وولاد حتة واحدة ، ومراتك قالت لما يطلع على خير هيسدد كل اللى عليه" ، كأنهم يواسون أنفسهم فاستكملوا جماعة بصوت واحد: " اجمد شوية يا مرسى ، دا العمر مش مستاهل ".

أفسَحوا المجال لأمرَّ من بينهم سليمًا مندهشًا من عقولهم التى لا تنسى أبدًا الحساب والدين والنوتة ، تركونى أمر وهم سعداء بأن هناك إنسانًا مثلهم يحس بالخوف من المصير المجهول ، ويمكنه الموت على قارعة الطريق وسط السوق لعدم تمكنه من العيش وسط أنفاق الحياة .

اندهشت لتذكرى فجأة وجه الدكتور " فهيم" وجلسات الكهرباء التى أفقدتنى الوعى والإحساس بالكائنات التى تملأ محيط حياتى ، تدفق الدم لرأسى فجأة فعاودتنى الارتعاشات والتشنجات .

وقفت بجوار حائط قريب أحاول مسح العرق المتصبب على خدى كنهر ، الذباب المتطاير حول عينى يغيظنى ويؤلمنى .

أجرى وراءه فى الشارع محاولاً اصطياده وقتله ، فجأة أتذكر " مرسى" الجديد ، فأقف مذهولاً من حركاتى غير الطبيعية ، تعاودنى شخصية " خمسة" مرة أخرى ، فأقف مذهولاً من نفسى محاولاً إرجاع عقلى لمكانه الطبيعى بأعماقى البعيدة .

أستعيد توازنى ، وأمر من وسط الشارع محاولاً الوصول إلى منزلى الهارب من مكانه.

أمام البوابة التى كتب عليها الرقم بخط واضح ، شاهدت الجيران يقفون فى غضب ويشهرون السكاكين فى أياديهم ، حين اقتربت منهم دون اعتداد بحياتى ، قال جارى القاسى: " هرب اللصوص المجرمون بعد أن سرقوا شقتك يا أستاذ مرسى ، أشبعناهم ضربًا وجرحنا معظمهم ، لكنهم تمكنوا فى النهاية من الاختفاء " .

قالت امرأة بسخرية تقمصت دور زوجة جارى: " مراتك مرزوقة مش فى البيت من الصبح يا ضنايا " ، اتصلنا بيها عند إخوتها علشان تشوف الشقة اللى نفضها ولاد الحرام".

انبرى صبى صغير أمام صمتى ضاحكًا وهو يشير إلى وجهى المذهول الصامت: " احنا نسينا يا جماعة إنه مجنون " .

كلمات الدكتور المعالج تغيب بأعماقى رغم محاولتى المستميتة بإرجاعها ، عبثًا هربت للأبد ، فجأة لبستنى شخصية جديدة ، تمكنت منى وتجاوزت كل شخصياتى القديمة ، فقلت للصبى: " شوف أمك الأول بتبات عند مين قبل ما تتكلم عن جنونى يا بن المرة " .

تكهرب الجو وفوجئت بنفسى ملقًى على الأرض والشماريخ تعاود ضربى على رأسى ، لم ينجدنى منهم إلا امرأة اخترقت جمعهم بخفة صارخة بظلمهم وتوحشهم الغريب ، ادعت أنها زوجتى .

الشىء الغريب أن عائلة "مرزوقة " تجمعت فجأة ، وشاركت الجيران فى تقطيع وجهى بالسكاكين ، شاهدت " جزرة " وزوجته و" طماطم" وزوجها " فلفل " وأولادهم يتسابقون على تمزيق ملابسى .

تهيأ لى اتصالهم جميعًا مرة أخرى بسيارة الشرطة لتنقلنى للمصحة خاصة بعد أن ألقى الأطفال فى وجهى بالطوب ، وصرخوا وسط بهجة الجميع ..." المجنون آه ، العبيط آه "

(٥)

شـىء رائـع أن تحيا بشخصيات متنوعـة ، وتتنقل بينـهم فـى خفـة ، وتتمكن فـى اللحظـة نفسها من البكاء بصدق والضحك من أعماق قلبك ، وحدك يمكنك تحقيق ذلك وليس عليك إلا اتباع نصائح طبيبك المعالج ، كى تعيش أحلامًا رائعة .

تحمل جسدك وتسير دون أن تعى تاريخ شخصيات متنوعة متناقضـة تلبسك بشكل فاق الخيـال ، شخصـيات قـررت التـآلف والتعـايش بسـلام وانسـجام ، غيـر عـابئين بالتكـاثر والـولادة والموت داخلك .

لـن أحكـى لـك كثيـرًا عـن المتعـة والروعـة اللتين تحسـهما وأنـت تقـوم بـأدوارك المتنوعـة بكفـاءة ؛ لأن البشـر عاشـوا فـى تـاريخهم الطويـل دون أن يتجـاوزوا الشـروخ والشـقوق العميقـة بأرواحنا فيضطروا للتعايش بحب وألفة مع وجوههم المتنوعة الخلابة .

سوف تحس بالامتنان ، وكأن الدنيا ميزتك دون العالمين بمواهب لا يفهمها إلا بعض أمثالـك الـذين يمـلأون البيوت والشـوارع وأمـاكن العمـل ودواويـن المصـالح ، لكـن الغريـب أننـى الوحيد حتى الآن الذى لا أعرف كيفية الانتقال بسهولة وسلاسة ويسر بين شخصياتى العديدة ، كأننى المختل الوحيد وسط هذه الحياة .

حين يحضرنى " مرسـى " القديم ، أرغب فى العيش معه الباقى من عمرى ، ولما كنت ضـعيفًا وجـاهلاً بـالخطوات السـريعة المفهومـة للجميـع للبحـث فـى أعمـاقى والانتقـال لـتقمص الشخصية الملائمة للحظة الحاضرة التى يعيشها الجميع ، يحدث الخلل الذى يظهر فى ملامحى الغريبة ، وعيونى المتداخلة بسبب تاريخ متناقض وحاضر مختلف لشخصيات عديدة تعيش فـى اللحظة نفسها فى كيانى وداخل أعماقى.

هنا تقع المشكلة مع الآخرين الذين لايمكنهم أبدًا فهم عجز شخص ضعيف عن تقمص كل الأدوار بكفاءة ، كأنـه يشير إلـى قسوتهم وجحودهم وقهرهم لأرواحهم بالنجـاح فـى الطيـران داخل كل الشخصيات التى عرفتها البشرية دون تساءل واحد عن معنى الدوران أوالاستمرار حتـى النهاية .

فوجه الأخ الطيب ، والصديق الوفى ، والابن البار بوالديه ، والزوج المخلص لحرمة منزله ، والأب المتفانى فى خدمة أولاده ، يجب أن يتعايشوا ويتآلفوا معًا ليتجاوز الشخص الديون والفواتير المتراكمة وينتصر وينال الموت بشرف نهاية الرحلة وسط أهله وعلى سريره .

شىء رائع أن نتعايش ونتوازن لننتقل بخفة بين كل الأدوار دون أن يصيبنا الحزن أو الألم ؛ لأننا أقوى من أعمق أعماق النفس البشرية التى يختلف فيها الخير عن الشر ، والحب عن الكره ، والسعادة عن الحزن ، والجفاف عن النماء ، والموت عن الحياة .

لكن هيهات لكل هذه الأكاذيب ، فأعماقنا تنسجم مع تاريخنا فى دائرة رائعة ، تمكننا من تجاوز النسيان والعيش كطيور بريئة لم تسمع قط عن القتل والحقد والطمع والغل والشماتة.

يجب أن تقاوم وتفهم أنه لا مجال أمام أحاسيسنا إلا بقتلها بهدوء لتجف وتتشف ، وتصبح كالشجرة العجوز التى يمكن فقط أن تتذكر نضارتها ، فتبكى بتصنع على نسيان ريها أيام الجفاف لتموت أمامك فى حسرة دون الشعور بوخز الفقد والحرمان.

المصيبة أننى حاولت كثيرًا أن أوضح لمن حولى قلة خبرتى بالطرق الباهرة التى أبدعوها للتعايش والانتقال بين الشخصيات المتنوعة التى يألفها تكوينهم الطبيعى ، فكان رده فعلهم الغيظ والحقد ، والإحالة للتحقيق ، واغتصاب براءتى ، وحبسى بمبانى المصالح ، وفلق فروة رأسى . ومعايرتى وسط الحوارى بأننى خرقة بالية ضعيفة تتهرب من المسئولية .

العجيب أن المرأة الوحيدة التى فهمت ضعفى دافعت عنى ، بعد تيقنها بضرورة الحفاظ على جسدى بصرف النظر عن شخصياتى المتناقضة التى أفشل فى تقمصها ، فرغم تقديرها لجهلى بالطرق الرائعة التى يتبعونها للانتقال الناعم لشخصياتهم المتنوعة الخلابة ، لكنها دائمًا ما تقول لنفسها وللآخرين كأنها تدافع عن آخر نَفَسٍ بحياتها: " آه ضل راجل والسلام " .

قوة غامضة هذه المرة دفعتنى للتحدى والإصرار على ألا أكون أيًا من الشخصيات التى عرفوها عنى قبل ذلك ، قلت لنفسى: " سأبدع شخصية جديدة ، وطرقًا باهرة خلاقة لأتمكن من الانتقال السلس بين الشخصيات التى يرغبون فى رؤيتها بأعماقى البعيدة .

لكن سيارة البوليس التى وقفت أمام المقهى تنتظر حضورى بالتشريفة التى تحيطنى أعادت الماس الكهربائى لجسدى الذى قهر روحى يومًا ما ، لم أندهش لقذف الأطفال الصغار ظهرى بالطوب من الخلف ، كأنهم يعيدون أحداثهم المكررة بشغف وبكارة رائعة ، حتى ربات البيوت فتحن شبابيكهن ليتندرن ويرأفن على حال مواطنٍ يرفض التعايش بينهم فى سلام .

اندفعت من أمامهم كطائر شرس رافضًا أن تلمس كتفى يد الضابط ، صرخت فى الأطفال والصبية المحيطين بجسدى ممتنعًا عن ركوبى السيارة التى تعرفنى ، وأرفض الدخول في صندوقها المظلم مرة أخرى .

الجميع تجمعوا حولى يطالبوننى بالهدوء والركوب والسير مع البوليس للذهاب للمصحة ، الجميع حاولوا أن يبكوا على شروخى وضياع التنوع والتميز من أعماقى ، يبكون على أنفسهم ، وهم يحاولون بدأب أن يحثونى على مواصلة السير ، قالوا:" لن يكلفك الأمر شيئًا يا " مرسى"، فقط ستدفع ثمن رفضك ".

حكم لطيف ينزلون به عليك من السماء فجأة ، لنمر من الدنيا غير ممتعضين من طرقها المرسومة بدقة ، ونستقبل طمس تاريخنا وضياع هويتنا بحب وصبر وشموخ ، ونقول فى النهاية بصدق حقيقى للفجيعة التى طالت حياتنا:"الحمد لله والشكر لله " .

لا لن أشكر أحدًا ، لا تستحق حياتى الشكر ، بل تستحق البغض والسب لكل المتسببين بميلادى ، الجميع قرر إعادتى لطريقى المرسوم: "المصحة " ، "والدكتور المعالج "، "وجلسات الكهرباء" و" حجرة الثلاجة "، و"تناول طعام يشبه برازك ".

سأرفض مصيرى المنحوت بعقولهم ، لن يجبرنى أحد مرة أخرى على قبول شخصياته المتنوعة ، لن أصعد سيارتهم ، وليذهبوا للجحيم ، لكنَّ المتوحشين المصرين على مغادرتى الشارع ، قرروا التضحية بواحد منهم ، ليظلوا مدهوشين حيارى فخورين بقدرتهم على الاستمرار وسط الدائرة ، حامدين ربهم الذى يمنُّ عليهم كل لحظة بنعمة النسيان أوالعقل .

رفعونى من قدمى وجسدى ، ليدخلونى صندوق سيارة الشرطة ، فجأة عادت شخصية " خمسة" بكامل بهائها لتلبس روحى ، ففتكتُ بأسنانى أياديهم ووجوههم .

أطلقت لـ " خمسـة" العِنـان ، فهربـوا مـن أمـامـى مـذهولين مـن قـوتى وتمـردى وقـدرتى الرهيبـة علـى الـرفض ، جـرى "خمسـة" مبتعـدًا عـنهم والجميـع مـذهول خـائف مـن الاقتـراب مـن "المجنون " .

"حيلة"

(١)

الدم يملأ ملابسى الممزعة ، يدى تلقفت سكينًا وأشهرته بوجههم ، وقفت بعيدًا أرمق عيونهم المرتعبة ، صرخت كوحش كاسر :" لن أركب السيارة مرة أخرى " .

اقتربت بسكينى من الضابط الذى اختفى داخل جمع الجيران ، وباعة السوق ، وقلت كرجل حقيقى وأنا أشير بإصبعى إلى جسده المرتعش:" أين إذن القبض ، وبطاقتك الشخصية ، وخط سيرك يا بهلوان؟ "

استكملت أسئلتى متعجبًا من صوتى الهادر : " هل خرجت من القسم بهالتك الكاذبة ، لتقبض على مواطن فقد عقله دون سند " ، صغرت أفواه الناس من حولى ، الجميع صعقوا وأنا أواصل اتهام الأسد الذى يرعب قلوبهم بقوة لم يتخيلوها بأحلامهم .

سألته دون اندهاش:" هل أنا تاجر مخدرات ، أم قاتل ؟ ألا تدرى أن اللصوص سرقوا باب شقتى ، وحملوا السجادة التى أنام عليها والثلاجة التى أشرب مياهها ، ألا يستحق ذلك أن تتحرك لتحمى ممتلكاتى كرجل أمن؟! "

صرخت بالجيران الصامتين قائلاً: " أين نخوتكم ، حين قام اللصوص فى وضح النهار بدخول شقتى ، وتحميل الغسالة والتليفزيون والأنتريه وسرير طفلى ، أتقاسمتم معهم المسروقات فتركتموهم ينهبوني بكل حرية ، وحين انتهوا من تنظيف شقتى ، عدتم لعقولكم الشريفة لتجروا وراءهم كى يهربوا خائفين من جنبكم؟! "

أمرتهم بالدخول لشققهم كالفئران ، وأمرت الضابط بالعودة لمبنى القسم الذى يحمي لون جدرانه من السقوط وتركى وحيدًا .

نفذوا أوامرى دون امتعاض ، دهشت زوجتى من صوتى القوى ، وقالت بحب: " اطلع يا مرسى" ، رددت كزوج حقيقى قائلاً: " اطلعى أنت ولا تخافي من هؤلاء الكلاب " .

سرت وسط الشارع ممزق الوجه والملابس شاهرًا سكينى ، ووقفت أمام أقفاص الفكهانى ، وطالبته بغلق محله والسير معى ، لبَّى أمرى دون تردد .

شهرت سكينى بوجه المكوجى ، وطلبت منه غلق المحل والسير معنا ، كررت الأمر مع القهوجى ، والفوال ، والبقال ، والجزار ، مررت على كل محلات السوق ، وأمرت أصحابها بإغلاقها ومرافقة جمعنا .

رغم دهشتهم امتثلوا لأمرى ، كأنهم يعلمون الطريق الذى قررت السير فيه ، توقفت أمام باب منزل كبير يعرفه الجميع ويجلس أمامه نساء وصبية مسلحين وشبه عرايا ، قلت بصوت مفزع حتي للطيور : " أين البلطجية واللصوص يا أرباب السوابق؟ " لم يردوا ، فدخلت غير عابئ بالموت ، مقطعًا بالسكين وجه كل من قابلنى .

أمام ذهول الجيران وأصحاب المحلات دست بقدمى على رقبة كبيرهم ، وأمرته ليعيد باب شقتى وسجادتى المسروقة وأجهزتى ، زأر الرجل من تحت أقدامى ، طالبًا الرحمة وصارخًا بأحد صبيانه إحضار السيارة التى نقلت أشيائى إلى مخزن الخردة .

بسرعة البرق عادت السيارة وسط ذهول الجيران، طلبت من السائق أن يسير وراءنا صامتًا ، نفذ أوامرى بعد إعلانه الانضمام إلى جمعنا وبراءته من نقل أجهزتى بسيارته ، تقدمت الحشد الذى التحق به النساء والرجال التائهون ، سرت معهم دون أن ندرى ناحية مبنى القسم ، صرخت بأعلى صوتى على المأمور ليخرج ويرينى رأسه وعينه .

عم الصمت في ارجاء المكان ، وفوجئت بنفسى أقذف زجاج القسم وأبوابه وشبابيكه بالطوب ، فقام الجميع بتقليدى ومؤازرتى ، دخلنا المبنى وأحرقنا كل أوراقه ودفاتره وفتحنا التخشيبة .

أطلقنا المساجين ليشموا هواءً باردً متنوعًا خارج الحجز الذى يفرم أجسادهم ، التحقوا بنا عرايا ، الغريب أن مبنى القسم كان خاويًا من الحراس ، هرب العسكر حين علموا بالأخبار من مرشديهم .

الدنيا تلف وتدور وأنا أنطلق نحو المجهول ، أتقدم غير عابئ بالحياة أو الموت ، قال الفكهانى:" ألا يكفى ما حدث؟ " وكأنه أعادنى لشخصية " خمسة" ، و دون أن أدرى ، صرخت فى البقال والمكوجى والجزار ليحرقوا دفاترهم القديمة .

أحضر صبية يتقدمهم " شبارة" أكوام الدفاتر من محلاتهم وقاموا على الملأ بإشعال النيران فيها ، الجميع تقمصوا شخصيات حقيقية وألقوا فى الحريق برغبة دفينة فى النسيان كل الديون والفواتير والحسابات.

فى لحظة مباغتة نظروا إلى عينى فجأة فاستعادوا هويتهم ، جروا وحدهم يبحثون عن الديانة ، استوقفوا سيارة فخمة يقودها "صافى" ويركب بجواره شخص ادعى أنه حائز عقود الأراضى التى وثقناها بختم المصلحة وأمهرناها بتوقيعنا كدلالة على أحقيته فى امتلاكنا .

شاهدت "جزرة " وزوجته ، "طماطم" وزوجها " فلفل" وأولادهم يصبون جراكن الجاز على مقدمة السيارة ، اشتعل الحريق ليلتهمَ تاريخهم الذى شاركوا فى صنعه ، تمكن "صافى" من الهرب ، التهمت النار جثة صاحب الأراضى بحقيبة المستندات الموثقة ، نظرت إلى عيونهم باندهاش ، لم أجد بقلوبهم إلا دخان الحريق .

فجأة وبدون مقدمات عادوا لشخصياتهم الأخرى بعد سماع أنين زوجة أخى ونحيبها ، كانت تصرخ عارية مطالبة بعودة عمرها الضائع ، تجرى أمامنا وتدخل حارة سد ، تمسك سكينًا طويلاً ، تجرح كل من يقترب منها ، وقفت بنهاية الحارة صارخة دون وعى: " افتحوا الأبواب ، اهدموا الحوائط ، أريد عمرى الضائع يا ولاد الكلاب ".

كانوا ينظرون إليها باكين ، محاولين بشخصياتهم الجديدة المتنوعة معرفة الطريق والإجابات الرصينة التى يجب تقديمها لامرأة خرجت عن المألوف ، لكن عيون الزوجة التى فقدت عقلها تدفعهم أكثر نحو السير في المجهول الذى يتقدمون بداخله غير عابئين بالمصير .

حاولوا الاقتراب من أعماقها ، نظرتْ بغل مبتعدة عن ضجيجنا كأنها طائر مربوط بحبل ضعيف يلتف حول جمعنا ، كلما اقتربنا منها ابتعدت وازداد الحبل تهالكًا .

فى لحظة مباغتة قرروا بأسى ترك الحبل ، فطارت بعقلها بعيدًا كأنها طيارة ورقية قُطِعَ فجأة خيطها المربوط بقلوبنا ، ذهبت لأعماق المجهول وسط عيوننا المندهشة السابحة خلف الطائر الغريب الباحث عن مكان بعيد يركن فيها لينسى أذانا .

كانت ملتصقة بتراب الأرض وتعيش معنا منذ أيام ، وفجأة قررت أن تبتعد شيئًا فشيئًا ، بحيث لم يعد بينها وبين أهل السوق وجيرانها سوى خيط ضعيف ، أمسكوا جميعًا بأطرافه وفجأة ودون مقدمات تركوا الحبل منشغلين بالدوران وسط قلب الحياة ، فغادرت المسكينة عالمنا تبحث وحيدة عن نهايتها ، غادرتنا فى لحظة مباغتة ، ولم يهتم لرحيلها أحد.

بعد الانتهاء من حرق مبنى القسم وهدم أسواره ، طلبت من السائق أن يتجه إلى منزلى ، وأمام باب البيت الذى شاهد إعلان شخصياتهم المتنوعة ، قام جيرانى وباعة السوق جميعًا بغرابة بإعادة أشيائى المسروقة لشقة " مرزوقة" التى زغردت مندهشة لعودة باب الشقة الذى يحمى عورتها من عيونهم .

(٢)

طلبت منهم بعد احتشادهم حول منزلى بالمئات أن يصرخوا ، تقدمتهم وهم يهتفون ورائى وأمامى بأصوات مبحوحة للنجاة ، عددوا صور القهر التى قدمتها الدنيا لهم ، بكوا وضحكوا وأحسوا بى كأخ يجب أن يرشدهم للخطوة التالية .

دون اتفاق وصلوا إلى مبنى المصحة ، هجموا على الأسوار ، أطلقوا النزلاء المحبوسين بدعوى جنونهم ، تسحبت وسط جموعهم ، أمسكت برقبة الدكتور المعالج ، وجرجرته من أقدامه للحديقة التى تحيط بالمصحة لأشرب دمه .

خلصوه من يدى بأعجوبة ، بعد أن مرمغوا وجهه وجسده وملابسه بالطين ، فقأوا عينيه وهو يلملم وحدته كفأر وقع بمصيدة القطط المفترسة ، دخلت عيونه الصفراء لأعماقه كثعلب ، ودون أن ينبس بكلمة واحدة استسلم لمصيره .

نظروا ببلاهة إلى حوائط حجرة نزعوا ضلفة شباكها المفتوح على الحديقة ، انبهروا للحظة بفخامة جدرانها التى تمتلئ بالصور والشهادات والأجهزة ، فجأة أحضروا جراكن البنزين والسولار ، وبقسوة غريبة ألقوها فوق رأس الطبيب ، وقذفوا الحجرة من الشباك المفتوح ببقايا العظام البشرية المدفونة بأرض الحديقة ، نبشوا بأظافرهم أرض المصحة ليستخرجوا الجثث التى ماتت دون ذكر موعد رحيلها بأية دفاتر .

أشعلوا النار بالحجرة وبجسد " فهيم" ، ليستمتع بالنهاية التى كتبها لكل واحد فينا ، ليتألف مثلنا مع الكائنات ويقبلها ، فاستحق عن جدارة هو الآخر مصيره بعد تطبيق قوانينه العادلة عن التوازن والتعايش بين الشخصيات المتنوعة للوصول سالمين إلى محطة القطار الأخيرة.

خرجنا من المصحة وتوجهنا إلى مبنى المصلحة ، أحاط المجتمعون جدرانه من كل اتجاه ، طلبت من " صافى" والساعى ومحقق الشئون القانونية أن يواجهونى وسط الناس الذين أعرفهم بجرائمى .

أجبروهم على الجلوس وسطنا لأدون بالتحقيق تواريخ العقود التى وثقوها ، وأمهروها بخاتم المصلحة وتوقيعنا للمالك الذى يستحوذ وحده على كل حقائب الأموال ، تحت دعوى أننا جميعًا أولاد زوانٍ أشرار لا نستحق إلا الركل لتقمصنا ولعبنا أدوارً موائمة لطبيعة جنسنا البشرى النمرود .

فجأة بكى الناس بعد أن قيدوهم بالجنازير ، وربطوهم من البوابة وتركوهم عرايا يواجهون الحقد والشماتة كرد فعل طبيعى لتأففهم من حياتنا، والبغض من رائحتنا التي قدموها دون رأفة لشخصيتنا المتنوعة على مر السنين.

وسط ضجيجهم حول أسوار المصلحة، توجهت وحدى للسوق داخلاً محل أخى الشرك ، طلبت منه الإيصالات والشيكات الممهورة بتوقيعى كضامن ، فجأة امتلأ المحل بالعشرات ليجبروه على حرق كل مديونياتى ، والإقرار بحقى وحدى فى إدارة المحل ، حين نظرت إلى عينيه ، لم أر فيهما أى معنى للأخوة ، فبكيت متقمصًا شخصية حزينة طيبة .

خرجنا من المحل مندهشين من أنفسنا ، تأملت وجوههم وأحسست بأجسادهم كأغراب يلتفون حولى فى صحراء شاسعة ممتدة بطول الأرض وعرضها ، تساءلت فى صمت بنشوة حائرة: "هل رأيت هذه الوجوه قبل ذلك؟ "

شعاع جديد يخترقنى ويذهلهم إعادة خروجه مرة أخرى من روحى لتلبسهم شخصيات فريدة متنوعة لم أحسها قبل هذا التاريخ ، أرمق عيونهم المذهولة من حولى كأنهم بغايا يبحثون عن قلب المغتصب الشرير .

انتشروا كالسبايا بين الشقوق يبحثون عن أثر الرقيق ، يجرون حولى وورائى وأمامى وخلفى وأنا مازلت أقف فى مكانى ، أتأمل الاندهاش والبكارة الحقيقية التى غابت عنهم زمنًا طويلاً ، وعادت فجأة قبل الأوان .

عاشوا لحظات نادرة كأنهم ولدوا لهدم الأسوار وحرق إيصالات الديانة ، كانوا يقولون لأنفسهم بتعجب: " نحن بشر ، ولنا حقوق ، لا يهم أن ننسى أولادنا وزوجاتنا وأنفسنا ، لا يهم كل ذلك ؛ لأننا بشر نستحق أن نعيش ".

أى حبائل وألاعيب نظمها " فهيم " مع مأمور القسم ورئيس المصلحة والساعى لندخل بإرادتهم الأنفاق الطويلة ، وفى لحظة مباغتة فريدة يهدمون الحوائط ويعودون مرة أخرى للبراح الذى غاب عنهم سنوات.

وسط الضجيج لم تعد لأسئلتى أى معنى، لم يعد لبحثى عن الشخصيات التى تلبسنى وتتقمصنى أية فائدة .

الجميع انشغل بالخروج ، وتمزيق الستائر ، اليوم كل شىء أصبح مفضوحًا أمام عقولنا ، لا أحد سيقف فى المنتصف ويتفرج ليختار طريقه بحرية ، الجميع مجبر على السير والاندفاع للطريق الوحيد الباقى " المجهول ".

كأننا نلتصق بسطح كرة مطاطية تسرع فى الدوران حول نفسها ، ونحن نحاول التشبث بجدرانها ، نحاول التماسك بكل قوة لتحس أقدامنا ملمسها الناعم ، تهتز من تحتنا لتخلب عقولنا وتخيفنا ، فنتمسك أكثر بالباقى من جذورنا الضعيفة التى تبحث بين جدرانها عن منقذ .

تسرع الكرة من دورانها ولا تتوقف ، تقذفنا بعيدًا فى الفضاء ، فنتوه للحظات وأيام وسنين ، لكننا فجأة نكتشف ملمسها الرقيق ، وزهورها البيضاء ، فنعود بإحساسنا لنتعرف من جديد على حنانها المتدفق الذى يثمن قيمتنا.

نحاول من جديد بدأب الالتصاق بسطح جدارها الدائرى الذى يسرع كالصاروخ ، نتأرجح مرة أخرى خائفين غير مصدقين بأن أمنا يمكن أن تنسانا ، ينجح بعضنا فى التشبث والالتصاق من جديد بجدرانها ، ويفشل آخرون فى العودة والعيش وسطنا مرة أخرى ؛ لأنهم تأرجحوا لوقت طويل حول قلبها الرائع المتفجر، دون أن يفهموا قانونها المرعب ، فاستحقوا دون رأفة لفظهم للمجهول ، وسط نسيان الجميع ملامح وجوههم أو رائحة عرقهم ، فطمسوا بقسوة من دفاترنا تاريخ المفقودين فى المجهول وسط حسرة وفجيعة ستلازمنا للأبد .

(٣)

لحظة مباغتة بحياتنا تدفعنا للتقدم أو التراجع ، هى نفس اللحظة التى واجهتُ فيها جيرانى ، ورفضت ركوب سيارة البوليس ، كان يمكننى التراجع ، وتطبيق نصائح الدكتور المعالج .

لكن شيئًا ما دفعنى للتمرد والدخول وحيدًا فى مواجهة لا يمكننى أبدًا التنبؤ إلا بفشلها ، ومع ذلك نجحت .

ليس لطاقتى الخلابة ، ولكن لأن جيرانى وأهل السوق قرروا النظر للحظة لريش أجنحة طائر النسيان الذى مدهم بالأمل ، ودون إرادة نادى عليهم ، فساروا خلفه دون اعتداد بالمصير .

كأنهم بحلم رغبوا فى أستكماله ، ليستمتعوا بلحظة النهاية، غير عابئين بالحزن أو الفرح أو الوجيعة التى ستشج قلوبهم يوما ما.

سار العجائز وراءنا بعكاكيزهم ، لم تعقهم انحناءات ظهورهم عن التقدم ، ودعمنا لمواصلة الطريق المحفوف بالمخاطر والمفاجآت .

آلاف ساروا علي الطريق ، وهتفوا ضد ذاكرتهم ، وحطموا أعماقهم دون أن يدروا أنهم طيور حزينة مسالمة تبحث عن أحلامها التى كان يمكنها أن تنقلب لكابوس لو تراجعوا خطوة واحدة عن التقدم المستمر.

شاهدت أمى من بعيد تستند إلى كتف أبى بأصابع يدها الرقيقة ، شاهدتهما يفتخران بوجودى وسط الناس الذين يعرفونهم ، كأنى أقدم لهما الشكر على إخلاصهما وجهدهما الذى كاد يضيع دون أن يجنيا ثمار حقلهما الصغير الريان .

اليوم من حقهما أن يرفضا تناول الحبوب والعلاج والغم الذى يملأ جوانب شقتهما ، لأنهما تطهرا تمامًا ، بعد رؤية وجه ابنهما النضر العائد وسط الجمع الغفير ، شفتهم صرخات الجميع من الأمراض التى عاثت بأجسادنا وشخصيتنا المتنوعة دون رادع .

المدينـة كلها انقلبت فجأة تبحث عن وجهها الحقيقى وسط ركام قمامتها المنتشرة بكل أرجائها ، الحرائق والأدخنة اللتان تملآن سماء شوارعها ومبانيها تطهران الروائح النتنة ، المياه العذبة التى تدفقت فى الصنابير الصدئة بغزارة ، تكنس الغبار والرواسب اللذين يملآن جوانب حياتنا .

جروا جميعًا من حولى يبحثون عن أنفسهم ، ساروا مدفوعين ببصيص ضوء ونجاة من هزائمهم المتكررة، آملين فى الانتصار على شخصياتهم المتنوعة التي أعجزتهم عن النطق بكلمات الحب ومنعت طائر نسيانهم الحزين عن تدوينها .

كانوا متأكدين ببصيرتهم بأنهم لن يعودوا لشخصياتهم القديمة ، فحطموا اللحظة حتى لا يتذكروها .

عادت ذاكرتى تجرى أمامى ، شاهدت نفسى عصفورًا صغيرًا ، يمشى على طريق طويل مرتديًا مريلته المدرسية ، ويحمل بيديه كيس المخدة المملوء بكتب القراءة والحساب والكراريس الممزقة ، وبقايا سندوتش بطاطس مهروسة يطبع على كراسة الرسم منزوعة الغلاف فى دائرة غريبة بقع الزيت الغامقة كدائرة صفراء وسط الصفحة البيضاء.

أجرى خلف الإوز فى الأزقة، وألعب حتى الفجر فى رمضان بفانوسى الورقى مع أطفال أشبه بملائكة ينشدون فى بهجة بأعماقهم ألحان ذاكرتهم المفقودة.

عبرت فى لحظة قاسية بإرادتى الحرة لدائرة الحياة ، أدخلونى كالثور فى الساقية ، بدون تذمر من جانبى ربطوا عينى بقماش قديم مغبر ، وضربوا على ظهرى لأدور وأدور وأدور وأدور حتى هدنى التعب فوقعت على الأرض من الإعياء ، مقررًا التوقف حتى لو هرسوا جثتى بأقدامهم .

حين فتحت عينى ، وجدتهم جميعًا يرفضون الدوران مقررين نزع الغمامة عن أعينهم ، انبهرت دون أن أدرى إلى ولادة شخصيتى الجديدة .

اعتقدت أخيرًا أنى يمامة بنية بأجنحة رقيقة ، تغنى فى الفضاء وحيدة ، سمعت صوتها النقى: "كوكو كوكو ، احمدوا ربكو" ، لكن دخان الحرائق يعمى عينى مرة أخرى فتهرب الطيور عن جحيم البشر.

فجأة عدت لشخصيتى مستغربًا حالى وحالهم ، لكن ضجيج المجتمعين وصراخهم وفرحهم بالعودة ، جعلنى أتأمل نفسى من جديد ، تقوقعت فجأة داخل ضلوعى ، كحشرة العنكبوت المختبئة بخيوطها الرقيقة ، أنت تراها دائمًا بمنزلك ومكتبك ودواوين المصالح والمصحات وهى ملتصقة بسقف الحائط دون رغبة من أحد فى النظر إليها ، تلتف الحشرة كل يوم ، وتلتف دون اهتمام منا ، لتخلق لنفسها خيوطًا متداخلة عميقة يعجز أى عقل عن فك طلاسمها.

لكن الجميع فى تلك اللحظة قرر الخروج من شرنقتها وتقطيع خيوطها الممتدة ، ليتفاجئوا بأنفسهم مجتمعين حيارى باحثين عن هويتهم المفقودة .

غريبًا أقف معهم ، أبحث داخل أرواحهم عن نفسى ، شاهدتهم جميعًا بالشوارع والبيوت يتذمرون ويحملون بأيديهم أسلحة خفيفة ، ويتجانسون وهم يقدمون لبعضهم البعض الماء العذب والنصائح البكر للخروج من الأنفاق الطويلة التى حبسوا أنفسهم فيها دون وعى أو اهتمام طيلة العمر المنصرم.

شاهدت أخى يسحب زوجته المفتونة بصدرها وابنته الجميلة نحو الحرائق المشتعلة بكل مكان ، متحدثًا مع جيرانه بحب وألفة غريبتين .

ترك الفكهانى فرشته وجلس وسط جيرانى مع " ثناء" زميلتى وصديقتى وزوجها وأبنائها يشربون الماء العذب بحب وشغف، ويتحدثون عن الطائر المجهول برغبة عارمة فى الطيرن ، تحسسوا أياديهم وانطلقوا يتسابقون فى الحلم بأعشاش بسيطة تؤويهم على فروع الأشجار.

البقال يجالس صاحب البيت مستمتعًا بحرق الفواتير والدفاتر ، حتى اللصوص الذين سرقوا حقيبة زوجة أخى بالسوق شاهدتهم وسط الجميع سعداء آمنين ، يجلسون بجوار الموتوسيكل ، ويتناولون مع " مرزوقة" ورزق وربات البيوت الطعام كأنهم إخوة ولدوا من رحم امرأة واحدة .

انتشرت روائح غريبة فوق رءوسهم ، دخلت أعماقى فغيرت ملامحى ولون عينى ، شاهدتهم من جديد دون ديون أو التزامات ، بشرًا أحرارًا يستمتعون باللحظات الحقيقية فى حياتهم ، بصرف النظر عن الماضى المفقود ، أو المستقبل الغامض .

انتشرت بينهم طاقة غريبة أشبه بروح طائر الغفران الذى دخل قلوبهم بإرادتهم ليتسامحوا ويتمكنوا من العودة والدوران من جديد وسط دائرة الحياة .

فى لحظة مباغتة مذهلة اختفت وجوههم المتنوعة للأخوة والصداقة والأبوة والبنوة ، حرقوا وجه المديون دون حزن ، لم يعد إلا وجههم الحقيقى بدون شروخ .

انصهروا فى بوتقة واحدة جديدة ، أعادت لهم البهجة والامتنان والسعادة التى ملأت من جديد أعماقهم ، تحسست لون عيونهم ، فعدت شخصًا آخر مثلهم متمنيًا استكمال حياتى بينهم .

شيء رائع أن يعود إحساسك المسروق وتتعرف عليه ، وتبتهج بالارتعاشات التى تتدفع لقلبك، فتهتز كل جوارحك مستعيدة دمًا جديدًا نظيفًا غريبًا على طبيعتك ، يتدفق الدم الطاهر بشرايينك الناشفة لتعويض فقدانك .

شاهدتهم يجلسون على أنقاض ماضيهم مغتبطين ، نسوا الحسابابات والدفاتر والعقود والفواتير ، عاشوا لحظات صنعوها بأنفسهم وطريقتهم .

نظرت فى وجوههم الضاحكة المبتسمة لعينى ، قلت لنفسى مغتبطًا: " أهلى وعشيرتى وأصدقائى ، باتوا بحق أشخاصًا جددًا يستحقون العيش والحياة دون حسرة أو فجيعة ".

وعلى حين غرة عادت العرس وسط الجموع تتقمص وجه الذئاب ، فوجئنا بانتشار وجوههم الملثمة ، لم تكن تظهر إلا عيونهم المغلولة ، عملت بدأب لتفريق جمعنا ، دخلوا وسطنا كالذباب دون أن ندري ، وبات صعبًا أن نهرب من قذارتهم التى تحسسناها تستعيد تقييدنا وربطنا لنعيد دوراننا مرة أخرى ، الجميع أمسك فى لحظة ضعفه بالغمامة ليضعها بإرادته على عينيه متناسيًا اللحظات التى أفقدتنا كل شيء إلا سلامنا .

لكن الطائر عاد مرة أخرى وسط دهشتنا ، رفرف بأجنحته فعادت ذاكرتنا من بحر النسيان المهول ، ارتعبت وجوه الذباب كأنها ترتعش من صوت أجنحته المفرودة ، صرخ وسطنا لنصحو من غفوتنا ، نظر إلى عيوننا الباكية ، ودخل بحب لأعماقنا المفجوعة لاعتيادها الفقد والحرمان ، تمسكت شخصياتنا المتنوعة بصوت الطائر الذي رفرف وغرد بصوته الحزين ، كأنه يطالبنا باليقظة والتقدم والاستمرار لنيل الحلم ومرافقته على الدوام.

(٤)

وسط تجمعهم واندهاشهم تحولت إلى شخصية جديدة لم أحس بملامحها قبل ذلك ، أتخيل نفسى مرة أخرى محبوسًا كحشرة عنكبوت لفت حول نفسها خيوطًا وهمية كثيرة لتحمى قلبها من سماع أنين البشر وأصوتهم ، أحاول الخروج من شرنقتها الخانقة ، أتحول بفعل الخيوط التى تداخلت لتعيد نسج نفسها وتوازنها لأصبح وردة بيضاء متفتحة .

ينزل المطر على الوردة التى ولدت للتو ليغذى أوراقها ويقويها ، امتلأ الفضاء برذاذ المطر الخفيف وسط سطوع الشمس الحارقة ليعيد للوردة بهاءها ونضارتها .

تهز الرياح أوراقها التى تنضح بالعطر ، يتشممها الناس من حولى فيندفعون للأمام بخطوات واثقة للمجهول ، فجأة تتحول الوردة إلى ملاك بأجنحة وردية وخضراء ، يغنى ويطير حول الجميع وفوقه ، يشق السحب بطيرانه ، ينطلق كالسهم مختفيًا ، ثم يعود فى ثوانٍ بوشم جديد يلصقه على الوجوه فى لحظة واحدة كأنه يُعَلِّم عليهم كي يتعرفو على ملامحهم الجديدة دون عناء.

ينطلق الطائر بعيدًا ويختفى ويعود مرة أخرى على شكل فتاة رائعة مبتهجة تخطف أحد الصبية وتطير فوقنا وسط أسراب الطيور التي ارتدت ملابس بيضاء ناصعة ، وضحكوا بصوت عالٍ وهم يرفرفون ، الجموع المحتشدة رفعت رءوسها فى غرابة لتشهد على المعجزة ، قال الفكهانى وسط صحبته:" الصبية يطيرون بأجنحتهم الرقيقة " ، رد البقال مندهشًا:" لم يعد هناك دفاتر ولا ديون " .

فجأة دخلت الدنيا فى ظلام رهيب ، فتحسسنا العلامة التى وضعها الملاك علي وجوهنا ، رغم السواد الذى عم الدنيا إلا أننا تعرفنا على مشاعرنا وأعماقنا وأحاسيسنا دون عناء .

وقتها شاهدت المكوجى والجزار وصاحب المنزل ومحصل الكهرباء وجيرانى يطلبون منى أن ألازمهم كالطائر الحزين ، لكننى رفضت خائفا محتضنًا ذاكرتى التى لا يمكنها النسيان.

الانفجارات العديدة التى تفجع قلب الكون وتدخل كالسهام أعماقنا تدفع العيون المبحلقة بغرابة فى السماء للصمت والحيرة.

الانفجارات تقذف بأنوار لهيبها الأبيض المنطلق لداخل أعماقنا مرة أخرى ، تغسلنا نيرانها الناصعة وتعيد رقتنا الرائعة ، كادت تحرقنا سخونة النار التى تحيطنا من كل اتجاه ، فانتقل الخوف وعاد مرة أخرى لأجسادنا ، فقدنا مرة أخرى اللحظات البسيطة الباهرة التى عشناها كشخصيات بشرية متفردة بمصاحبة طائر وحيد يمكن أن يحيل مخيلاتنا بثوانٍ إلى حطام.

فى لحظة مباغتة عجيبة أعادت "ثناء" صديقتى النور لأرواحنا مرة أخرى ، صرخت فجأة غير عابئة بالطائر أو أجنحته أو شخصياتنا الفريدة المتنوعة ، بكينا مرة أخرى ولطمنا خدودنا وهى تقول: " الشرارة انتشرت، حرقوا كل الأقسام والمصحات ، أعادوا كل المسروقات ، قيدوا كل لصوص الهيئات والمصالح بالأبواب ".

المطر يزداد هطولاً ، وأشعة الشمس تعاود ظهورها ، النور المحيط بجمعنا يدهشنا من جديد كأننا داخل حلم ، ولا نرغب فى العودة مرة أخرى لحياتنا الماضية ، بالرغم من تذكر أسمائنا وتاريخ شخصياتنا المتنوعة ، فإننا قررنا الاستمرار بإصرار على عدم الرجوع لجحر الماضى ، دهسوا أنقاضه للمرة الأخيرة ، فشاهدوا الطائر الجميل يحلق خارج الدائرة التى عاشوا سنين داخلها دون أن يعمى عيونهم الظلام .

ظهرت الوردة البيضاء بالسماء مرة أخرى كأنها سحابة ناعمة تهطل علينا بالعبير المتدفق ، تحولت إلى شجرة ضخمة ، اخترقت جذورها الأرض ودخلت بأعماقها ، انطلقت حولنا تفرد أغصانها وزهورها الملونة لتظلل علينا كأم ، مصرة على تجميع أولادها المتفرقين المختلفين .

تحولت الوردة إلى شجرة كبيرة بفروع متنوعة وجذوع متينة ، امتلأت أغصانها بكل أصناف الفاكهة ، فتدفق مرة أخرى النسيان إلى أعماقنا ، وقفت مذهولا لأننى شاهدتهم جميعًا كمساخيط صغيرة بأجساد من ذهب ، تمشى على الأرض مبتهجة بعريها، الجميع يضحك ويلامس أعضاءه فى بهجة وبكارة ، كأنه مولود جديد يتأهب للطيران مع شخصيته الفريدة ، الجميع يتظلل بأغصان الوردة التى تحولت إلى قلب كبير للرحمة .

العصافير واليمام المغرد فوق أغصانها يعيدونى ، أراهم أمامى ؛ الجيران وأمى وأبى وأخى وزوجته والمذهولين بالمصحة ورواد المقاهى والأسواق واللصوص وكل البشر العابثين بأعماقى ينصهرون فى بوتقة واحدة ، جريت بينهم محاولاً تذكيرهم بأعمالهم ومنازلهم وأولادهم وأنفاقهم الطويلة الكثيرة ، اندهشوا وتساءلوا بغرابة مرددين صوتى القديم:" أنت مين ؟"

لا أدرى ، لماذا تذكرت وقتها شخصية "خمسة" وزميلى بالعنبر وحكايته عن قسوة أعماق البشر خارج الأسوار ، فجأة سألت نفسى فى لحظة فارقة: " خمسة مين ؟ "

يا أللہ على النفوس البشرية الرائعة التى يمكنها التعايش والانفجار والحب لتواصل فى غرابة الطريق المجهول نحو مصيرها! فى لحظة غير مفهومة يرفضون مبادلة الحياة الثمن الباهظ لاستمرارهم ، ويبحثون بأعماقهم عن كرمهم وكفاحهم لنيل أى أمل فى طريق مختلف .

ينسون الأحلام المجهضة والفواتير والالتزامات والمسئوليات والتناقض الذى قسم ضلوعهم وأرواحهم ، ينسون الحيرة ويخلقون أرواحًا جديدة لشخصياتهم، ويلبسونهاا فى أجسادهم النحيلة ليتمكنوا من الاستمرار حتى لو أوصلهم النفق إلى مجهول جديد .

إنها روح النجاة الملبوسة بطاقة النسيان التى تدفعنا إلى دهس الماضي غير عابئين بالمستقبل فنتحمل قسوة أعماقنا والوجوه المتنوعة التى تعاشرنا ؛ لأننا نثق بطائرنا الذى سيلازمنا الباقى من عمرنا .

مروا جميعًا بنفس الدروب ، شاهدوا الحسرة وأحسوا بالفجيعة ، وحين لم يتمكنوا من مسايرة شخصياتهم المفقودة تجمعوا معًا ، ودون اتفاق قرروا حرق الماضى وتمزيقه بأحذيتهم المهترئة .

يا أللہ من جمعهم وحولهم فى لحظة مباغتة إلى بشر جدد بعيون ناصعة ! شاهَدوا مثلى حشرة العنكبوت وهى تتحول بفعل السحر إلى وردة بيضاء ، انصهروا معًا وأحسوا برحيقهم الجماعى المذهل ، فدهسوا الوجوه المشتركة للأبوة والبنوة والأمومة والصداقة والزمالة ، وقتها لم يبق بينهم سوى تذوق طعم الحب .

يا له من طعم رائع حين تفاجأ بنفسك واقفًا وحدك على شاطئ بحر كبير ! فيخلبك نور الشمس الساطع بالمياه فترتمى بداخلها ، ويأخذك هناك بالقرب من حريقها الجبار ، وتنظر قبل أن تلتهمك النار إلى أشجار الأرض الصلبة التى تعرفها أعماقك ، فتعود بفعل الجاذبية لتحتضنك كأم لا يمكن أن تنسى رقتك وصراخك يوم إعلان ميلادك .

حين تتحسس دورانها الرهيب تبتلعك كمارد بقلبها ، لتتحول بداخلها إلى كتلة من الطهر، وتنام على أمل ذِكْرٍ بطولتك التى حمت الجميع يومًا ما ، لكن معنى تاريخك وماضيك ومستقبلك الغريب المهمل لا يخص حاضرنا ، ولايهم أحد أن يتذكره .

منظر النار التى تلتهم الشر تفجع روحى وتعيدنى شخص جديد لا أعرفه ، لكن الجميع من حولى مبتهجون لأنهم تأكدوا بأنهم هرسوا وأزاحوا من أرواحهم زبالة الكون التى قدمها "فهيم" المحتال ومأمور القسم الشاذ ، ورئيسى فى المصلحة الحكومية و"صافى" بيه الذى هرب بشخصيته المتزحلقة من وسط النار التى التهمت شريكه صاحب الأراضى ، والشخصيات المتنوعة الكثيرة التى كان يحملها بحقيبته .

حين قرر الجميع حرق الدفاتر وفواتير الإيجار والطعام والمدارس والنور والمياه والتليفون ، اكتشفوا نور النفق المختفى بأعماقهم ، فتنهدوا بحسرة لصبرهم كثيرًا على العيش فى ظلامه كل هذه السنين .

حين تأتيك اللحظة المباغتة ، ويراودك إحساس غريب ، وينتاب مشاعرك تدفق حائر ، لا تتردد فى السير وراءه ، إياك أن تدخل مصحتهم أو أقسامهم أو مصلحتهم ، يجب أن تقاوم وتبحث بدأب عن سر هذا الإحساس لتعيده مرة أخرى لقلبك .

ضمِّدْ جروحك ، املأ شروخك بالحب لتتطهر وتصبح فى النهاية كحشرة العنكبوت التى تحولت إلى وردة ، أو زهرة الورد التى تحولت إلى شجرة فاكهة.

يمكنك الطيران والتحليق بأجنحتك المفرودة بشموخ وسط الكون ، لم يكن أحد يصدق قط ما حدث ، ومع ذلك وقعت الحكاية وصنع أحداثها كل باعة السوق والجيران المنتشرين كالجرذان بالشقوق .

في لحظتى الفارقة التى دفعتنى لتذكر حكاية الطائر وحيلته فى النجاة ، آمنت بدفن الماضى ، فسرت مندفعًا نحو النسيان ، واستعدت اسمى الجديد ، حين راهنت على حقيقتى التى وثقت بها دومًا ، رغم تعدد الشخصيات التى لبستنى وتقمصتنى ، وجدته بأعماقى يهيمن على كل شيء ويدفعنى لمواصلة البحث عن هويتى .

حين عثرت عليها وتمكنت من الإمساك بها ، قررت عدم ممارسة أدوارى السابقة ، عشت للحظات وسط وجوههم الجديدة التى تمتلئ بالحب والبهجة والترحاب ، استغربونى واستغربتهم ، كأننا نتعرف على شخصياتنا الجديدة فى عالم غريب .

نعم يمكننا النجاح إذا فهمنا الخطوط المتشابكة لشجرة اللبلاب ، لنعيد من جديد نسج فروعها لنصبح زهرة ، أو ثمرة ، أو طفلاً بريئًا ، أو فتاة مجنونة بكرًا .

نعم يمكنك النجاح دون المرور بكل هذه الأنفاق ، لكن بعد كل هذا العمر اكتشفت وجوده الذي يلازمنى فى منامى ، ويرفرف على روحي كطيف ، ويدخل بغرابة شخصياته المتنوعة فى جسدى ليواسينى ، كلما تذكرت وجوههم القديمة ، يحضننى ويبكى معى لتضميد جروحى ، لكننى اليوم أتآلف معه كحبيب وأخ وأحس به كرفيق لا يمكن الاستغناء عنه أبدًا.

سرت وسط الجموع ، أستعيد كل الطرق المفقودة وأنتشى بمعرفة رائحة منزلى البعيد ، يا ألله كم هو رائع أن تشم رائحة الكائنات وتتعرف من أعماقها على نفسك ، وتدخل فيها ، وتضع بداخلها بذرة لطاقة خلابة تنسيها شرورها ، وتدفعها للعيش من جديد!

نظرت إلى الوجوه الرائعة التى تحيطنى ، تحسستُ يدى وأنفى ، سمعت صوت الطائر الذى يتقدمنى يقول بثقة لعيونى: " تقدم للمستقبل يا مرسى، تخطِّ المجهول ، تقدم بشموخ ولا يهمك أحدًا يا بطل ".

انتهت

الوراق

يوليو ٢٠١٢

كرم صابر

طائر النسيان

مركز المحروسة